www.abulhasanalinadwi.org

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

www.abulhasanalinadwi.org

أسبوعان
في المغرب الأقصى

www.abulhasanalinadwi.org

أبو الحسن علي الحسني الندوي

أسبوعان في المغرب الأقصى

مؤسسة الرسالة

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

كلمة عن الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن هذا الكتاب الذي بين يدي القراء الكرام، هو المذكرة التي سجلها كاتب هذه السطور- بعد عودته من الرحلة - في ضوء الملاحظات والإرشادات التي قيدها على عجل ابن أختي العزيز الاستاذ محمد الرابع الحسني الندوي. رئيس القسم العربي في دار العلوم ندوة العلماء، وزميلي ومرافقي في هذه الرحلة التاريخية، والذي دفعني إلى نشرها وإخراجها في صورة كتاب، أن فيها ما يحرك همم الإسلاميين ويشحذ عزائمهم، وأن فيها موعظة وذكرى للذاكرين.

وقد رأى المؤلف أن يتصدر المذكرة استعراض موجز لتاريخ المغرب والتطورات والتقلبات التي عاشها عبر الأدوار، وقصة الرقي والانحطاط التي مر بها والحضارة والثقافة والمدنية التي عاش في حضنها، حتى لا يشعر القارىء بالصعوبة في فهم القصة وأدوارها حين لا يكون قد اطلع على الخلفيات، وقد عهد بذلك إلى الأخ العزيز الفاضل الاستاذ شمس تبريز خان عضو المجمع الإسلامي العلمي بلكهنئو، فقام بذلك خير قيام وزادت به قيمة الكتاب العلمية.

www.abulhasanalinadwi.org

كما رأى أن يلحق به الكلمة التي بدأها في الرباط، بعنوان «نحن الآن في المغرب»، والتي ذكر من خلالها أبناء المغرب الأقصى، بتاريخهم الزاهر الزاهي وماضيهم المجيد العتيد، كما حذرهم من الأخطار التي تحدق بهم، وكادت تأتي عليهم، والواجبات التي تعود عليهم، والمسئوليات التي تقع على عواتقهم، وقد جاءت فيها عصارة دراسة المؤلف وتجاربه، وأخلص فيها النصح إلى القادة وأولياء الأمور.

وقد زادت قيمة الكتاب زيادة كبيرة مقدمة صديق المؤلف المرحوم الاستاذ عبدالسلام القدوائي الندوي، وكانت له عناية بالمغرب الأقصى واسبانيا، وتاريخها منذ البداية، وعاش على الحب لهذه الأرض، وله نظر عميق واطلاع دقيق على تاريخها، ونحن نشكره على هذا التكرم شكراً يفيض به القلب.

وقد وضع المؤلف هذا الكتاب في «أردو» لغة مسلمي شبه القارة الهندية بسبب قلة المواد في هذه اللغة وقلة معلومات الشعب المسلم عن إخوانهم المغاربة، ثم رأيت أن نقلها إلى العربية ونشرها في بلاد المغرب وفي العالم العربي منير للعقول، وحافز للهمم، فعهدت بنقله إلى العربية إلى الاستاذ نور عالم الأميني الندوي ـ وهو مترجم قدير وكاتب أديب ـ فقام بهذه العملية خير قيام، وتناولت الترجمة بالتنقيح والتهذيب، فجاء كتاباً مستقلاً كأنه ألف في العربية أصالة.

www.abulhasanalinadwi.org

ورجوت الصديق الفاضل والعالم العامل فضيلة الشيخ أبو بكر القادري أن يسعى في نشره في المغرب ويختار له دار نشر وتوزيع، لينتشر الكتاب في المغرب العربي الحبيب ويتحقق غرض المؤلف، فلبى هذه الدعوة في نشاط وحماس واستجابة كريمة كأنه كان منه على ميعاد، والشيء من معدنه لا يستغرب، فهو من كبار العاملين في مجال الدعوة الإسلامية ونشر الفكرة الصحيحة، وإثارة الوعي واليقظة الإسلامية، والمؤلف شاكر لفضله، معترف بجميله.

ونأمل أن هذه المذكرة سيتلقاها القارىء الكريم كهدية ثمينة وتحفة طريفة في حفاوة وإقبال ورغبة.

٣/٨/١٤٠١هـ

٧/٦/١٩٨١م.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

مقدمة لكتاب

« بقلم الاستاذ الكبير فضيلة الشيخ عبدالسلام القدوائي الندوي مساعد مدير المجمع العلمي الكبير « دار المصنفين » بأعظم كره، الهند، ورئيس القسم الديني بالجامعة الملية الاسلامية بدهلي سابقاً ».

منذ ٦٠ سنة ـ وأنا في بداية رحلتي الدراسية، لم تتوسع دراستي للغة الأردية أيضاً ـ وقع نظري في بيت أحد أقربائي على مجموعة لأبيات الدكتور محمد إقبال، معروفة باسم « شكوى »، فقد شكا فيها إلى الرب تبارك وتعالى على لسان الأمة المسلمة، ولم تكن لي قدرة بعد على فهم المعاني الشعرية الدقيقة ـ ذات مستوى رفيع ـ إلا قليلاً جداً، غير أنه كانت عندي هواية القراءة، فإذا وقع بصري على كتاب، لم يقر لي قرار حتى أتصفحه وأقلبه، وكان اسم الدكتور محمد إقبال معروفاً لدي، وسبق أن قرع اذني مرات عديدة نشيده الوطني الذي مطلعه:

« الصين لنا، والعرب لنا، والهند لنا، وكل العالم لنا لأننا مسلمون ».

ومن هنا رحت أتصفح كل مجموعة شعرية حينما رأيتها، على غلافها اسم الدكتور محمد إقبال، ولم أسع الأبيات فهماً،

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن ظللت أتغنى بها في لذة وسرور، وقد شعرت بنشوة بالغة بصورة خاصة عندما قرأت بيتاً له، معناه:

«إننا نحن المسلمين لم نترك بحراً من البحار، فضلاً عن البراري والقفار، فقد خضنا بخيلنا المحيط الأطلسي الذي يسميه الناس بـ «بحر الظلمات» يشير إلى القائد الإسلامي القديم عقبه بن نافع، الذي خاض البحر الأطلسي وأراد أن يطأ بجيشه أرض إسبانيا مبدأ القارة الأوربيـة فما تراجع إلا مضطراً أسفاً على امتداد هذا المحيط وعدم وجود الوسيلة التي تضمن تحقيق أمنيته، وهزني كثيراً التجانس الصوتي في هذا البيت، فوقفت عليه طويلاً أتغنى به، ولم تكن عندئذ دراستي للتاريخ، بحيث تعينني على ادراك ما يتضمنه البيت من المعاني العميقة، وإنما ألتذ بكلماته الساحرة، وتخيلاته الشعرية.

وبعدما مضت على ذلك أعوام، والتحقت بدار العلوم ندوة العلماء بلكهنئو، وأتيحت لي دراسة التاريخ الاسلامي، علمت أن هذا البيت ليس مجرد شعر يشتمل على تسجيع وقوافي، وفكرة شعرية، إنه ينطوي على إشارة بارعة إلى حقيقة تاريخية، لقد أحرز القائد المؤمن الشهير عقبة بن نافع انتصاراً مدهشاً، حينما انتصب لفتح إفريقيا الشمالية، وانهار أمامه العدو في مدة قليلة، وانجرف بسيله العارم جنود الأعداء الجرارة كالزبد، ولم يمض مدة قليلة حتى استولت الجنود الاسلامية على تونس والجزائر، وتخطت إلى مراكش، وفي أيام قليلة

www.abulhasanalinadwi.org

وصلوا إلى المحيط الأطلسي، وكانوا مدفوعين بحب الجهاد، والحرص على إعلاء كلمة الله في الأرض، فلم يثن البحر المتلاطم عزيمتهم، ونزلوا فيه كالبر تماماً، فقد كانوا يحفظون قصة فتح المدائن في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث كانت دجلة فائضة، وظن العدو أن العرب سوف لا يتمكنون من التقدم إلى الأمام خطوة، ووقفت دجلة حائلة في طريقهم، لكن الفاتحين المؤمنين ما كانوا ليبالوا بمثل هذا الحاجز، فقد اقتحموه بخيلهم دون تلكؤ، وكاد العدو يطير فرحاً حينما رأوا ذلك من الشاطىء المحاذي، وظنوا أنهم سيغرقون عن آخرهم في دقائق، لكنهم فروا لا يلوون على شيء - حينما رأوا سيدنا سعد بن أبي وقاص ورفاقه من الجنود الاسلامية قد وصلوا إلى الساحل تسبح بهم أفراسهم - وهم يقولون: «ديوان آمدند، ديوان آمدند» (قد جاءت العفاريت، قد جاءت العفاريت).

كأن عقبة بن نافع لم تغب هذه القصة عن ذاكرته، فألقى نفسه في البحر دونما تفكير أو تأجيل، لكن المحيط الاطلنطي لم يكن نهراً كدجلة، مئات من الأمتار يسهل عبورها، وإنما كان محيطاً هائلاً يهابه الملاحون والربابنة، فوقف بعدما تقدم خطوات، وتضرع إلى ربه قائلا: «يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك (١)» وقال: «اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد،

---

(١) ابن الاثير ٤٣/٣ نقلاً عن قادة المغرب ١١٠/١

www.abulhasanalinadwi.org

أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك (١) » .

ومنذئذ زاد إعجابي بإفريقيا الشمالية ولا سيما المغرب العربي، ثم لما قرأت تاريخ الأندلس، وعلمت أن أولئك المجاهدين المغامرين، والقادة الفاتحين كانوا من أبناء المغرب الذين كسروا شوكة عاهل إسبانيا « رادرك » وثلوا عرشه، وفتحوا هذه المنطقة المخصبة الخضراء من أوربا، ووسعوا حدود الدولة الاسلامية إلى القارة الثالثة من قارات العالم .

وكل زاد في إعجابي وإقبالي، وقد أثبت في قلبي قصة الدور البطولي الذي قام به طريف، والخطوة الجريئة التي خطاها طارق بن زياد، وقصة ثقته، وتوكله العجيب صورة للعزيمة والطموح والمغامرة، لا تمحوها الأيام والليالي، فمن كان يفكر في أن يقتحم أوربا ببضعة آلاف من الجنود، ويجابه العدو دون اكتراث، بهذه القوة العسكرية الزهيدة ورغم تفاوت عظيم في السلاح والعدة والعدد، وهو غريب لا رجاء له في العودة والفرار، فقد قطع أسباب ذلك، وأحرق السفن، يقول لاصدقائه المقاتلين:

« أين المفر، العدو أمامكم، والبحر وراءكم » .

أنظروا كيف يكون من تملؤه الثقة بنصر الله، والايمان بالفتح والانتصار، ولا يجد الخوف والهيبة إليه سبيلاً، والعدو المدجج بالسلاح، الموفور النشاط أمامه يرمقه، ويذكر زملاءه

(١) قادة فتح المغرب ١/١١٠، ١١١ (محالاً على رياض النفوس ١/٢٥، للركن المتقاعد محمود شيت خطاب .

www.abulhasanalinadwi.org

الذين يثقون في الاسباب بمسبب الاسباب وخالقها، وقد استطاع الدكتور محمد إقبال أن يودع هذه القصة بتمامها في ثلاثة أبيات فارسية:

«عندما أحرق طارق بن زياد السفن على ساحل الأندلس، قال الرفقة إن عملك هذا لا يصح في العقل والحكمة، إننا بعيدون عن الوطن، كيف السبيل إلى العودة إليه؟ إن الزهد في الأسباب لا يصح في الشريعة أيضاً، فتبسم وقال وقد قبض على سيفه: «إن كل قطعة تخضع لحكم الله وقدرته تعتبر وطناً لنا، فنحن جنود الله ورسل دعوته، إذ نحن سادة هذه القطعة الشرعيون الطبيعيون».

ولا نذكر الأندلس الفردوس الإسلامي المفقود فيما يتصل بالفتح والانتصار فحسب، بل نذكره كذلك، فيما يتصل بالعلم والفن، والحضارة والثقافة، والابتكار والاختراع، وطبيعي أن نذكر المغرب العربي عندما نذكر الأندلس، وليس في استطاعة أحد أن ينساه مهما حاول أن ينساه، فكلتاهما مقرونتان متصلتان، تشاطر إحداهما الاخرى كل مجال من مجالات الحياة، فنرى في التاريخ أن الحديث عن المغرب مقرون بالحديث عن الاندلس والعكس، في كل دور من أدوار التاريخ، وفي كل لون من ألوان الحوادث والقصص، سواء أكانت قصة الرقي، أو قصة الانحطاط، فقد كانت لقوات المغرب، وأمواله، ورجالات العلم والسياسة، والحكمة والفكر،

www.abulhasanalinadwi.org

سيطرة على الأندلس في عهد الإمارة (١) أيضاً، وعندما احتاجت الأمة من أجل استعادة قوتها المسلوبة إلى دم فائر، كان المغرب هو الذي أمدها بذلك، والمغاربة هم الذين ثبتوا الأقدام حينما جاء دور الخلافة في الأندلس وهم الذين آووا عبدالرحمن الداخل الأموي، الذي نزل عليهم متخلصاً من مخالب بني العباس، وعلى أكتافهم دخل الأندلس وبالتالي اعتلى عرش «قرطبة»، وقد أقام خلفاؤه حكومة مترامية الأطراف، موطدة الأركان، نشرت في أوربا الحضارة والمدنية، ونورت جنباتها بالعلم والفن، ولو أمعنت النظر لوجدت للمغاربة دوراً بارزاً في كل هذه المآثر.

ولما تهلهل نظام الحكم في الأندلس بعدما ازدهر قروناً طوالاً، وتمزقت صفحات الحكومة، وتوزعها ملوك وأمراء، رأى المسيحيون أنه قد آن أوان إقصاء العرب من نواحي إسبانيا كلها، وأن تقام حكومة مسيحية شاملة، وكانت الساعة ساعة حرجة، فقد انقسمت الدولة العربية إلى دويلات، وتفككت عراها، ولم تعد تقدر على مواجهة القوى المسيحية المتحدة، وكان المسلمون فريسة انهيار فظيع، ويبدو كأنهم سيعودون أثراً بعد عين في أيام عديدة، في هذه الساعة الحساسة الحرجة تقدم عاهل المغرب، وجعل آمالهم هباء منثوراً، وحول مطامحهم أضغاث أحلام، فقد كسر السلطان يوسف بن

(١) عندما كانت الأندلس تحت الحكم المركزي في الأندلس، كانت دمشق تنصب أميراً عليها يستقل بإدارتها ويقوم بشؤونها، وذلك هو المراد من عهد الأمارة.

www.abulhasanalinadwi.org

تاشفين شوكة القوات المسيحية في معركة «زلاقة» وهزمها السلطان أبو يعقوب في معركة «مرج الحديد» هزيمة نكراء لم تقم لهم قائمة إلى قرون.

وكلما كنت اقرأ تاريخ هذه المناطق، كنت أتمنى أن لو أتيح لي أن أزور هذه الأرض الحبيبة، وأراها بعيني وأقبل آثار أقدام الفاتحين، واكتحل بغبار آثارها وموقع أقدامهم، وكنت غارقاً يوماً في عالم الأماني هذه أذهب فيها كل مذهب إذ غلبتني عيني، فرأيت في المنام أني في مسجد قرطبة، وظللت أتجول في هذا الفردوس الأرضي طويلاً، وأقر عيناً برؤية الآثار الطيبة التي أثبتها هناك رجال الاسلام وأشبال الاسلام، ولما استيقظت دامت هذه المظاهر الساحرة يهفو إليها قلبي، وتحن إليها نفسي، وكانت الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان المبارك والوقت وقت السحر، فنهضت وتوضأت وصليت، ودعوت الله، وقلت يا رب اجعل هذا الحلم حقيقة.

وكنا نعمل عندئذ في مؤسسة «تعليمات إسلام بلكهنئو»، وكانت المؤسسة تقوم بتعليم الرجال القرآن الكريم عن طريق دراسة اللغة العربية، وكانت المؤسسة تصدر جريدة نصف شهرية باسم «تعمير»، وكنت أنا وزميلي المحترم الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي نشترك في رئاسة تحريرها، وكان غلافها يحمل إسمينا، وهذه القصة كلها منشورة في صفحاتها.

وما كنت أؤمل أن هذه الرؤيا تتحقق، ولكنه حينما أتيح

www.abulhasanalinadwi.org

للشيخ أبي الحسن بعد أعوام أن يزور إسبانيا، ويزور جامع قرطبة ومدينته الزهراء، وقصر الحمراء في غرناطة، ثم زار في الأيام الأخيرة المغرب، قلت في نفسي: «هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً».

قد شاهد أحد رئيسي تحرير «تعمير» بعينيه ما رآه الآخر في المنام.

إنه قد تشعب الحديث، وطال الكلام، والقراء يحنون إلى قراءة كتابة الشيخ أبي الحسن السلسلة الرائعة، ولا أريد أن أحول دونهم أكثر مما كان، فليقلبوا الأوراق وليقرأوا قصة رحلته المثيرة، وزيارته الشائقة، بقلم المؤلف الرحالة البليغ، وسيجدون فيها روعة الايمان واليقين، والتشجيع على العمل، وفي قصص السلف الصالح، يجد الخلف مايغذي روحه ويقوي قلبه، وإذا كان الكاتب تأتي كتابته مثيرة للحنان والايمان باعثة للروح والحياة، فلا تسأل عما يجده عقل القارىء وقلبه من لذة وسرور، ستفتح الأفكار والعواطف المتدفقة، والعزائم المتوجة آفاق الفكر والقلب، وتبعث على العمل، فقد ضرب الكاتب الجواب في كل خطوة أوتار القلب، واستطاع أن يضع أمام القارىء صورة العهد الزاهر، وصورة عهد الانحطاط المحزن، حتى يتمكن من دراسة ما يسود عصره من بؤس وشقاء، ويستضيء في دياجير حياته بقصص العهد الغابر الزاهر، وقد جاء في بداية الكتاب خلاصة موجزة من تاريخ المغرب

www.abulhasanalinadwi.org

الأقصى، بقلم أحد الزملاء الفضلاء، (وهو الأستاذ شمس تبريز خان)، حتى يسهل فهم ما جاء في المذكرة من إشارات وتصريحات، ويكون النفع أوفر وأكثر.

وأرجو أن هذه المذكرة ستلقى إقبالا لائقا، ينتفع بها القارىء انتفاعاً وافياً، فإنها تحمل عبراً كثيرة، لو قرأها القارىء بقلب شاهد، وعين متفتحة، فهل من مدكر؟!

١١ شعبان ١٣٩٦هـ ٨ اغسطس ١٩٧٦م

عبدالسلام القدوائي الندوي
دار المصنفين ـ أعظم كره

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

مراكش

إستعراض تاريخي موجز

إذا كانت إسبانيا فردوسنا المفقود، فإن مراكش هي الفردوس الذي استعرضناه واستردداناه، وكانت مراكش هي مدخل المسلمين إلى الأندلس، ولما ضاقت الأرض فيها على المسلمين لدى انحطاطها فإن أرض المغرب هي التي كانت ملاجيء المشردين التي احتضنتهم، وقد ازدهرت على أرضها الكريمة، البقية الباقية من حضارة الأندلس وثقافتها وعلى ذلك فكانت أندلساً ثانياً وخير بديل عن الأندلس الأولى.

إن مراكش (Morocco) تحمل أهمية كبيرة بالنسبة إلى موقعها الجغرافي، إنها تقع على الجانب الغربي من قارة إفريقيا، والبحر الأبيض المتوسط (Méditerranéan) والمحيط الأطلنطي (Atlantic Séa) التجاريين، ومساحتها ١٧٢ ٥٥٦ ميل مربع، وعدد سكانها إلى سنة ١٩٦٢م كان حوالي عشرة ملايين نفس، وقد صرح أحمد عبدالله المسدوسي أن مساحتها كانت ٦٨٠ ٤٤٣ ميل مربع وأما عدد سكانها في ١٩٦٣ م فكان قد بلغ إلى ٠٠٠ ٩٢٥ ١١ نفس، وأما مساحتها حسب إحصائية الحكومة فهي ٧٣٠ ٤٥٨ كيلومتر مربع، وبلغ عدد سكانها في يونيو ١٩٧١م الى ٢٥٩ ٣٧٩ ١٥

www.abulhasanalinadwi.org

نفس، وعلى ذلك فأربى عدد سكانها على عشرين مليون نفس، وأما موانىء مراكش الكبيرة فهي «مليلية»، «سبتة»، «طنجة»، «العرائش»، «الرباط»، «الدار البيضاء»، «الجديدة»، «أغادير»، «تطوان»، «القنيطرة»، «سلا».

«آسفي» وما إليها وأما مدنها الكبيرة بعد «الرباط» وهي عاصمتها، فهي «فاس» و «مكناس» و «طنجة» و «الدار البيضاء» و «تطوان» و «مراكش» و «وجدة».

مراكش، تاريخها العريق:

يرجع تاريخ مراكش إلى ٥٠٠ ق م، إذ قام «هنو» أحد سكان «قرطاجنة» بالرحلة إلى جبل طارق، من أجل إقامة مستعمرة، وقد توجه بثلاثين ألفاً من الناس على ستين سفينة، وأقام مستعمرات عديدة في أمكنه مختلفة من المغرب الأقصى.

ويرى معظم المؤرخين أن سكانها القدامى كانوا من فلسطين أصلاً وهم أولئك الذين نفاهم سيدنا داوود عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام فقدموا إفريقيا مع قيل من الأقيال، وقد قال ابن خلدون ان البربر هم كنعانيو الأصل، ولكن ابن حزم يرى أنهم ينحدرون من سلالة عربية، وحينما تألبت الأقيال على رومة وتغلبوا عليها، بعد فتح «قرطاجنة» بأربع وستين سنة، وسعوا نفوذها إلى بعض مناطق المغرب الأقصى أيضاً، وحينما تضايق الرومان بالبربر وذاقوا مرارة شرهم، لاحقوهم في ٤١م إلى «تافيلالت» وحولوها إلى ولاية رومية، ومنذ

www.abulhasanalinadwi.org

١٦١م بدأ سقوط الرومان حيث أغارت على هذه المناطق بعض القبائل الاوروبية الوحشية، ورغم ذلك استمرت حكومة الرومان إلى ٤٣١م، ثم تغلبت عليهم القبائل الوحشية، ثم إن الرومان إستعادوا المغرب في ٥٤٤م وظلوا يحكمون عليها إلى أن أشرقت شمس الاسلام في ربوعها، ولا تزال أنقاض الأبنية الرومانية موجودة فيما حول «مكناس» (١).

البربر:

البربر قوم عرفوا بالشجاعة والنخوة، والفروسية، وشدة الشكيمة وأسلموا بعد الفتوحات الاسلامية وقال ابن خلدون أنهم ارتدوا ثم استقاموا على الإسلام منذ أيام موسى بن نصير[٢].

وقد أشاد العلامة ابن خلدون بذكرهم، وقال إنهم كانوا يتمتعون بالأخلاق الحسنة، والنخوة والثقة بالنفس، وقرى الضيف، والوفاء بالوعد، والصبر والثبات، والتسامح والعفو والصفح، والطموح وبعد الهمة والفروسية، ونصرة دين الله، وكانوا بجانب العرب والفرس والرومان واليونان في كل ذلك، ومن أجل ذلك كله ملكوا زمام الحكم، وكان فيهم قادة فاتحون ورجال عظام مثل يوسف بن تاشفين بطل وقعة الزلاقة وعبدالمؤمن بن علي[٣].

---

(١) أنظر تاريخ ابن خلدون ٦ - ١٠٣ و «تاريخ مراكش» بقلم محمد إنشاء الله ١ - ٨ (لاهور ١٩٠١).

(٢) دائرة المعارف للقرن العشرين لفريد وجدي

(٣) راجع تاريخ ابن خلدون ٦ - ١٠٤ طبع مصر.

www.abulhasanalinadwi.org

بداية الفتوح الإسلامية:

في ٢١ ـ ٢٢ هـ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح عمرو بن العاص مصر وليبيا وتونس، وغزا عبدالله بن سعد ابن أبي السرح إفريقيا في عشرين ألفاً، عام ٢٧ هـ بأمر سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، وافتتح معظم مناطقها، وصالح أهلها على مليونين ونصف مليون درهم سنوياً [١]، وكان عدد جيش جرجير ملك البربر مائة وعشرين ألفاً، وخرج في هذه الغزوة ممن حول المدينة خلق كثير [٢]، كان فيهم عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمرو، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن جعفر والحسن والحسين ولذلك سمي جيش العبادلة[٣]. وفي سنة ٣٣ هـ أعاد عبدالله بن سعد ابن أبي السرح الكرة على إفريقيا حين نقض أهلها العهد، فانتصر عليهم وأعاد النظام إلى ربوعهم وأقرهم على الإسلام والجزية[٤]، وفي سنة ٤٣ هـ غزا عبدالله غزوة «ذات الصواري» في البحر من ناحية الإسكندرية، وواجه قسطنطين ابن هرقل في خمسمائة مركب، أو ست مائة، وهزمهم عبدالله بمائتي مركب هزيمة نكراء[٥]، ولما عاد إلى مصر من غزوة

---

(١) انظر البداية والنهاية ٧ ـ ١٥٢ طبع ١٩٦٦م.

(٢) البلاذري ص ٢٢٨ نقلاً عن «قادة فتح المغرب» ص ـ ٥٦، ج ـ ١.

(٣) قادة فتح المغرب ١ ـ ٥٦ محالاً على تاريخ ابن خلدون ٢ ـ ١٢٨ الملحق.

(٤) نفس المصدر ص ـ ٦١، ٦٢.

(٥) نفس المصدر محالاً على الطبري ٣ ـ ٣٤٠ وابن الأثير ٣ ـ ٤٤ وفتح مصر والمغرب ٢٥٦ والنجوم الزاهرة ١ ـ ٨٠.

www.abulhasanalinadwi.org

« ذات الصواري » عام ٣٥ هـ وافاه خبر من ثار على عثمان بن عفان رضي الله عنه، فخرج من مصر متوجهاً إلى عثمان[١] وقتل عثمان رضي الله عنه واستخلف علي بن أبي طالب، فعزله عن مصر عام ٣٦ هـ بعد أن حكمها نحواً من عشر سنين[٢]، وسار عبد الله إلى الرملة أو إلى عسقلان لما بلغه مقتل عثمان ووقوع الفتنة واعتزل الفتنة، ولم يبايع لعلي ومعاوية، وأقام بعسقلان، ودعا على نفسه قائلاً: « اللهم اجعل خاتمتي على صلاة الصبح »، فلما طلع الفجر من يوم وفاته توضأ وصلى الصبح وسلم عن يمينه، وذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه، وذلك سنة ٣٦ هـ رضي الله عنه وأرضاه[٣].

ويتلوه في قائمة فاتحي المغرب اسم معاوية بن خديج السكوني، المتوفى ٥٢ هـ الذي كان من ضباط عمرو بن العاص في فتح مصر، ومن ضباط عبدالله بن سعد بن أبي السرح في فتح إفريقيا والنوبة، وقد غزا إفريقيا ثلاث مرات، فتح للمرة الأولى أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه في ٣٤ هـ القيروان، وفتح « بنزرت » في ٤١ هـ ثم نصبه معاوية رضي الله عنه لغزو الروم في ٤٥ هـ وكان معه عبدالله بن عمرو وعبدالملك بن مروان فهزم جيش العدو البالغ عدده ثلاثين ألفاً

(١) نفس المصدر ص ـ ٦٤ محالاً على النجوم الزاهرة ١ ـ ٨٠، ٨١.
(٢) النجوم الزاهرة ١ ـ ٨٢.
(٣) قادة فتح المغرب ١ ـ ٦٤، ٦٥

www.abulhasanalinadwi.org

عند حصن «أجم» بعشرة آلاف، وهو الذي بعث عبدالله بن الزبير رضي الله عنه لغزو «سوسة»، ولقد بنى بناحية القرن مساكن، وسماها قيروانا ونشر الإسلام بين البربر، وحفر الآبار في محل القيروان، وخلد آثاراً حسنة في مصر والمغرب، وتذكر له غزوة في ٥٠ هـ أيضاً، وفي ٣٦ هـ بعث بأول مركب بحري إلى «صقلية»[١].

ثم يأتي دور عقبة بن نافع الفهري القرشي، الذي ولد قبل الهجرة بسنة واحدة (٦٢١م) والذي قد كتب الله له استكمال فتح قارة إفريقيا، شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص في ٢٠هـ وتولى قيادة جيش من جيوش المسلمين في فتح «زويلة» في ٢١ هـ، وخاض معارك عديدة بحرية وبرية مع الروم، واستعمله عمرو بن العاص في عهد معاوية على إفريقيا، فجعل يتابع الفتح، ويفتح بلداً بعد بلد، ويسائل أهل البلد «هل من ورائكم؟» فلئن كان الجواب بنعم تقدم، وكان في نية عقبة أن يمضي قدماً في مجاهل الصحراء الإفريقية، فسأل أهل «كاوار» هل من ورائكم أحد؟ فقال الدليل: «ليس عندي بذلك معرفة ولا دلالة فانصرف عقبة راجعاً، فمر بقصر «خاور» فلم يعرض له ولم ينزل بهم ثم سار ثلاثة أيام، فأمنوا وفتحوا مدينتهم، وأقام عقبة بماء اسمه اليوم «ماء فرس» ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش شديد أشرف منه عقبة

---

(١) نفس المصدر انظر الصفحات ٨٥، ٨٩.

www.abulhasanalinadwi.org

وأصحابه على الموت، فصلى عقبة ركعتين ودعا الله، وجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض، حتى كشف عن صفاة، فانفجر الماء منها، وأخذ الفرس يمص ذلك الماء، وأبصر عقبة فنادى في الناس: «أن احفروا» فحفروا، وشربوا واستقوا، فسمي ذلك المكان لذلك ماء الفرس[1].

ومضى عقبة بجيشه إلى المغرب، وأخذ إلى أرض «هوارة» وافتتح كل قصر بها، ومضى إلى «صفر» فافتتح قلاعها وقصورها، ثم بعث خيلاً إلى «غدامس» فاستعاد فتحها ثانية، وتوجه إلى «قفصة» فافتتحها، ثم افتتح «قسطيلية» ثم انصرف إلى «القيروان» وكان معه عشرة الآف فارس، وصفى بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين «برقة» و «القيروان» وأصبحت هذه المنطقة قاعدة رصينة، تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال «إفريقيا» حتى المحيط الأطلسي.

وكانت القيروان غيضة كثيرة الأشجار، ومأوى الوحوش والحيات، فقال له رجاله: «إنك أمرتنا بالبناء في شعار وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات، وغير ذلك من دواب الأرض»، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل، وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه، ومضى

---

(١) المصدر نفسه ٩٠، ١٠٠.

www.abulhasanalinadwi.org

إلى السبخة، ووواديها ونادى: «أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فارحلوا عنا فإنا نازلون ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه»، ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر عجيب، من أن السباع تخرج من الشعائر تحمل أشبالها، والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها ونادى في الناس «كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا»، فلما خرج ما فيها من الوحش والهوام، وهم ينظرون إليها، نزل عقبة الوادي، وأمرهم أن يقطعوا الشجر[1].

وأمر عقبة ببناء القيروان سنة ٥٠ هـ، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم، وفي سنة ٥٥ هـ استعمل معاوية بن أبي سفيان مسلمة بن مخلد الأنصاري الخزرجي على مصر وإفريقيا، وعزل عقبة عن إفريقيا، فاستعمل مسلمة على إفريقيا مولى له يقال له «أبو المهاجر دينار» فقدم إفريقيا وأساء عزل عقبة، واستخف به وسجنه، وأوقره حديداً، فاقام في الحبس شهوراً ثم أطلقه حين أتاه كتاب معاوية بن أبي سفيان بتخلية سبيله وإشخاصه إليه[2].

وسار عقبة إلى الشام وعاتب معاوية على ما فعله به أبو المهاجر، فاعتذر معاوية إليه ووعده أن يعيده إلى عمله، ورده

---

(١) قادة فتح المغرب ١٠٢، ١٠٤ محالاً على رياض النفوس ٦/١، ٧ والبيان المغرب ١٣/١، ١٤ وآثار البلاد ٢٤٢، وابن الاثير ١٨٤/٣ وأسد الغابة ٤٢٠/٣، ٤٢١

(٢) البيان المغرب ١٤/١ وابن الأثير ١٨٤/٣، وفتوح مصر والمغرب ٢٩ واليعقوبي ٢٠٤/٢ نقلاً عن المصدر نفسه

www.abulhasanalinadwi.org

يزيد والياً على إفريقيا، سنة ٦٢ هـ، وسار عقبة إلى إفريقيا من الشام، حتى قدم على القيروان، بعشرة الآف فارس، فأخذ أبا المهاجر وحبسه وقيده وأخذ ما معه من الأموال، وجدد بناء القيروان، وشيدها ونقل الناس إليها فعمرت وعظم شأنها[١].

وخرج عقبة بأصحابه وبكثير من أهل القيروان، إلى المغرب بعد أن ترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال، واستخلف بها زهير بن قيس البلوي، ودعا أولاده قبل مغادرته القيروان وقال لهم: «إني قد بعت نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله»، ثم قال: «عليكم سلام الله، وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا»، ثم قال: «اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي»[٢].

ثم وصل عقبة إلى «تلمسان» يفتح البلاد، ويهزم العدو ويعلي كلمة الإسلام ورحل إلى «تاهرت» متابعاً عملية الفتح والانتصار واستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم، فقام عقبة في الناس خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وقال: «أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوارسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان على من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم

---

(١) نفس المصدر ١٠٩ ـ ١٠٧.

(٢) ابن الأثير ٤٢/٤، ورياض النفوس ٢٢/١، نقلا عن المصدر نفسه ص ١٠٧، ١٠٨

www.abulhasanalinadwi.org

إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين، بجنة بيعة رابحة، وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا؛ ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازاً لدينه، فأبشروا، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم عز وجل لا يسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعلكم بأسه الذي لا يرده عن القوم المجرمين، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين»[1].

والتقى المسلمون بعدوهم، وقاتلوهم قتالاً شديداً، وانهزمت الروم والبربر وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم[2]، وسار عقبة حتى نزل على «طنجة» فلقيه بطريق من الروم اسمه «بليان» وأراد عقبة فتح الأندلس، فقال له «بليان»: «أتترك كفار البربر خلفك وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، ويقطع البحر بينك وبين المدد» فتوجه عقبة، فنزل على مدينة «وليلي» بازاء جبل «زرهون» وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين «سبو» و «درعة»، وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ «قصر فرعون»، فافتتحها عقبة وغنم وسبى[3].

---

(١) رياض النفوس ١/٢٣، ٢٤.
(٢) ابن الأثير ٤/٤٢.
(٣) الاستقصاء ١/٧٣ نقلاً عن قادة فتح المغرب ١/١٠٩، ١١٠.

www.abulhasanalinadwi.org

فقاتل عقبة البربر، وهزمهم وسار حتى بلغ «مالبان» ورأى المحيط الأطلسي فقال: «يا رب! لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك»[1]، ثم قال: «اللهم اشهد، أني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك»[2] وجاء في دائرة معارف القرن العشرين أن عقبة ألقى فرسه في المحيط حينما بلغ «أسفي» وقال: «اللهم إني لم أخرج بطراً ولا أثراً وإنك تعلم إنما نطلب السبب الذي طلبه عبدك ذو القرنين، وهو أن تعبد ولا يشرك بك شيء، اللهم إنا مدافعون عن دين الإسلام فكن لنا ولا تكن علينا يا ذا الجلال والإكرام»[3].

ورجع عقبة إلى القيروان، فلما انتهى إلى «طنبة» آذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا القيروان فوجاً فوجاً[4]، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد «تهوذة» وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلعة طمعوا فيه فأغلقوا الحصن، وشتموه وهو يدعو إلى الاسلام، فلم يقبلوا منه[5]، وبعث الروم إلى كسيلة الذي كان في عسكر عقبة مصمراً للغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة فقال أبو المهاجر «عاجله قبل أن يقوى

(١) ابن الأثير ٣/٤٢، ٤٣.
(٢) رياض النفوس ١/٢٥.
(٣) دائرة معارف القرن العشرين ج ـ ٨.
(٤) ابن الأثير ٤/٤٣ ورياض النفوس ١/٢٥.
(٥) الاستقصاء ١/٧٤.

www.abulhasanalinadwi.org

جمعه»، وكان أبو المهاجر موثقاً في الحديد مع عقبة، فزحف عقبة على كسيلة، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حَزَناً أن ترتدي الخيل بالقنا
وأترك مشدوداً عليَّ وثاقيا

إذا قمت عنّاني الحديد وغُلِّقَت
مصارع من دوني تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك فأطلقه، وقال له: «إلحق بالمسلمين وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة»، فلم يفعل وقال: «وأنا أيضاً أريد الشهادة» وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم[1]، ومعهم عقبة وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بتهوذة سنة ٦٣ هـ (٦٨٣م) وقبر عقبة بزار بالزاب، كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة وهو في عداد المزارات[2]، رضي الله عن عقبة وعنهم أجمعين وأرضاهم.

---

(١) ابن الأثير ٤/٤٣.
(٢) الإستقصاء ١/٧٤ نقلاً عن المصدر السابق ص/١١١، ١١٢.

www.abulhasanalinadwi.org

ولا يمكن بهذه المناسبة غض البصر عن أبي المهاجر دينار التابعي مولى مسلمة بن مخلد الأنصاري، وقدرته القيادية ومآثره الجسيمة ونشاطه العظيم في فتح المغرب الأوسط، الذي بلغ من حماسه للجهاد إلى أنه «طبق مبدأ» تحشيد القوة «قبل البدء بحركاته، فاستفاد من كل مقاتل مسلم، ولم يُبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء»[1].

ويتلوه اسم زهير بن قيس البلوي الذي قيل فيه إن له شرف الصحبة[2]، وقد جزم بعض القوم بصحبته فقال: «هو من الصحابة»[3]، ذلك الذي حينما أشار على عبدالملك بن مروان أصحابه بإنفاذ الجيوش إلى إفريقيا لإنقاذ المسلمين من يد كسيلة ولإعزاز الإسلام بها كما كان في أيام عقبة، قال لهم عبدالملك: «من للأمر مثل عقبة؟» فاتفق رأيهم على زهير، فهزم كسيلة والروم والبربر هزيمة لم تقم لهم بعدها قائمة، وذلوا، وفتنت فرسانهم ورجالهم وكسرت شوكتهم، وصاروا يخافون منذئذ زهيراً والعرب خوفاً شديداً وبعد فتح «تونس» عاد إلى القيروان، فرأى بافريقيا ملكاً عظيماً، فأبى أن يقيم بها وقال: «إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك»[4].

---

(١) قادة فتح المغرب ١ ـ ١٤٨.
(٢) أنظر الإصابة ٣ ـ ١٧، أسد الغابة ٢ ـ ٢١١، والإستقصاء ١ ـ ٧٦.
(٣) تهذيب ابن عساكر ٥ ـ ٣٩٣.
(٤) ابن الأثير ٤ ـ ٤٤، رياض النفوس ١ ـ ٢٩.

www.abulhasanalinadwi.org

ثم خاض معركة هائلة مع الروم في برقة وكان المسلمون في عدد قليل، والروم في خلق عظيم، والتحم القتال، وتكاثرت عليهم فقتل زهير وأشراف من كانوا معه من العرب[١] ولم ينج منهم أحد وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية[٢]، وحصلت هذه الكارثة الفاجعة في ٧١ هـ.

ويتبعه اسم حسان بن النعمان الأزدي الغساني، الذي قال فيه عبدالملك بن مروان: «ما أعلم أحداً أكفأ بافريقيا من حسان ابن النعمان الغساني»[٣] استعمله عبدالملك على إفريقيا في سنة ٧٣هـ إنه هزم الروم في «قرطاجنة» ثم اتجه إلى المرأة الكاهنة البربرية القوية الشخصية، الزكية الفؤاد، الكثيرة النفوذ في البربر لا يعصون لها أمراً التي كانت تخبر البربر بأشياء من الغيب، قد اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة، وأصبحت ملكتهم دون منازع، وزحف إليها حسان، ونزل على نهر «نيني» وزحفت إليه الكاهنة في عدد لا يحصى، حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه، ودنا الطرفان من بعضهما، واقتتلوا قتالاً شديداً، وعظم البلاء، وظن المسلمون أنه الفناء، وانهزم حسان بعد بلاء عظيم، وقتل من العرب خلق كثير فسمي ذلك

---

(١) البيان المغرب ١ ـ ٢١.
(٢) ابن الأثير ٤ ـ ٤٤.
(٣) رياض النفوس ١ ـ ٣١.

www.abulhasanalinadwi.org

اليوم يوم البلاء[1]، وسمي النهر الذي التقوا عليه «نهر البلاء»[2]، وبعد خمس سنوات في ٨٢ هـ أعاد حسان الكرة عليها وهزمها وقتلها، وهزم في نفس السنة أسطول البطريق يوحنا (Patricius Jean) وكان حسان يفكر في إنشاء ميناء ميناء جديد للاسطول البحري القوي، فوقع اختياره على «ترشيش» التي كانت ميناء يونانية قديمة، فبدأ تخطيط المدينة من جديد، وبناها بناءاً جديداً، وضرب حسان السكة للمغرب دنانير ودراهم وفلوساً، وجدَّ في تعليم العربية للبربر، لأنها أصل الدين، وجعل الفتح الاسلامي في إفريقيا فتحاً (مستداماً)[3].

ثم يأتي دور موسى بن نصير اللخمي، ولد موسى في ٩ هـ (٦٤٠م) في خلافة عمر بن الخطاب، ولاه معاوية بن أبي سفيان أيام خلافته البحر فغزا «قبرص» وبنى هناك حصوناً[4]، وفي ٦٤ هـ شهد مع الضحاك بن قيس الفهري معركة «مرج راهط» وفي سنة ٦٥ هـ توجه مروان بن الحكم إلى مصر، فتملكها، واستعمل عليها ابنه عبدالعزيز[5] وجعل له موسى بن نصيروزيراً ومشيراً[6] وفي سنة ٧١ هـ ولى عبد

---

(١) رياض النفوس ١ ـ ٣٣.
(٢) فتح مصر والمغرب ٢٧٠.
(٣) راجع قادة فتح المغرب ج ـ ١.
(٤) البداية والنهاية ٩ ـ ١٧١.
(٥) العبرة ١ ـ ٧١ وشذرات الذهب ١ ـ ٧٣.
(٦) الولاة والقضاة ٤٧.

www.abulhasanalinadwi.org

الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان الكوفة، وفي سنة ٧٣ هـ ولاه البصرة، وجعل عبدالملك معه موسى وزيراً ومشيراً، وجعله المسؤول الأول عن كل خلل وتقصير يقع في ديوان العراق[٣]، وفي سنة ٧٥ هـ مات بشر أمير العراقين، فولى عبدالملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي العراق، وأوصاه أن لا يفوته موسى لأنه احتجن الأموال لنفسه حين كان والياً على خراج البصرة، ولكن اتهامه بذلك موضع شك كبير نظراً إلى استقامته ونزاهة سلوكه[٤].

وفيما بعد ٨٤ هـ عزل عبدالعزيز بن مروان ـ الذي كان على مصر ـ حسان بن النعمان وولى مكانه موسى بن نصير على إفريقيا والمغرب، وبعدما اخضع موسى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى تطلع نحو «طنجة» وحاصرها، حتى أفتتحها ونزلها، ثم سار إلى مدائن على شط البحر ورأس تلك المدائن «سبتة» وعليها «جيليان» (Julian) فقاتله، فألفاه في نجدة وقوة وعدة فلم يطقه، وعاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل على «طنجة» وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وفي ٨٥ هـ غزا موسى في بحر إفريقيا «البحر الأبيض المتوسط» فأصاب في غزوته تلك «صقلية» وافتتح مدينة فيها»[٥].

وبعدما تم فتح المغرب تاق موسى وطارق إلى فتح

(٣) البداية والنهاية ٩ ـ ١٧١.
(٤) قادة فتح المغرب ١ ـ ٢٢٣ ـ ٢٢٦.
(٥) قادة فتح المغرب ١ ـ ٢٣٦ ـ ٢٣٨.

www.abulhasanalinadwi.org

الاندلس، وبينما كان موسى يترقب الفرصة لتحقيق هذه الأمنية الحبيبة إذ وافته رسالة من «جيليان» يعرض فيها تسليم «سبتة» ويدعوه إلى فتح إسبانيا، ففي رجب ٩٢ هـ (نيسان ـ أبريل ٧١١ م) جهز موسى جيشاً من العرب والبربر، بقيادة طارق بن زياد الليثي، فعبر البحر من «سبتة» بجيشه في سفن «جيليان» ونزل بالبقعة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه اللامع حتى اليوم أعني «جبل طارق» وتوالت الانتصارات والفتوح[١].

كان موسى من التابعين، ورعاً تقياً، وكانت البلاد في قحط شديد، فأمر الناس مرة بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج معهم إلى الصحراء، ثم صلى وخطب في الناس، ولم يذكر الوليد بن عبدالملك، فقيل له الا تدعو لأمير المؤمنين فقال: «هذا مقام لا يدعى فيه لغير الله تعالى» فسقوا حتى رووا ورخصت الأسعار (٢).

سأله سليمان بن عبدالملك مرة: أخبرني كيف كانت الحروب بينك وبينهم أكانت عقباً؟ فقال: «يا أمير المؤمنين، ما هزمت لي راية قط، ولا فض لي جمع ولا نكب المسلمون معي نكبة منذ اقتحمت الأربعين إلى أن شارفت الثمانين»[٣].

---

(١) نفس المصدر ٢٢٣ ـ ٢٢.

(٢) ابن الأثير ٤ ـ ٢٠٦، ووفيات الأعيان ٤ ـ ٤٠٣ نقلاً عن قادة فتح المغرب ١ ـ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٣) الإمامة والسياسة ٢ ـ ١٠٠.

www.abulhasanalinadwi.org

وقال سليمان بن عبدالملك لموسى في بعض المناسبات «ما الذي كنت تفزع إليه في مكان حربك من أمور عدوك؟» قال: «التوكل والدعاء إلى الله يا أمير المؤمنين» قال له سليمان: «هل كنت تمتنع في الحصون والخنادق، أو كنت تخندق حولك؟» فقال: «كل هذا لم أفعله» قال: «فما كنت تفعل؟» قال: «كنت أنزل السهل، وأستشعر الخوف والصبر، وأتحصن بالسيف والمغفر، وأستعين بالله وأرغب إليه في النصر»[1].

في ٩٧هـ حج سليمان، وحج معه موسى، فتوفي موسى في «وادي القرى»، عن ثمان وسبعين، رحمه الله وجعل الجنة مثواه.

في ١٠٠هـ ولي الخليفة المؤمن عمر بن عبدالعزيز رحمه الله على المغرب عبدالله بن أبي المهاجر، الذي تم على يديه إسلام البربر، لكنهم انتفضوا من حين لآخر بحكم طبيعتهم الثورية. وفي ١٥٥هـ قضى ابن أخي المنصور، يزيد بن حاتم على ثورة بربرية، وجدد بناء جامع القيروان وبنى مدينة القيروان بناء جديداً.

بنو إدريس

في ١٦٩هـ خرج أهل البيت على موسى الهادي وسار إدريس ابن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن سيدنا علي

(١) الإمامة والسياسة ٢ - ١٠٠.

www.abulhasanalinadwi.org

المرتضى إلى مصر، ثم إلى «وليلي» (المغرب) وأنزله الأمير البربري إسحاق بن محمد، وأكرم مثواه، وحمل البربر على طاعته، وأعلن بخلافته، وكسب إدريس بن عبدالله معارك كثيرة، وافتتح المناطق فيما بين «تلمسان» و «سلا» واتسقت له الانتصارات، حتى استشعر الخليفة العباسي هارون الرشيد منه الخطر، وتوفي إدريس في ١٧٧هـ.

في ١٩٢هـ أسس إدريس بن إدريس مدينة «فاس» وقد حكمت هذه الأسرة ١٤٠ عاماً ولكن الحكومة عاشت طيلة الفترة حروباً داخلية ولم تتمتع بحاكم حازم قوي الساعد، وإداري عاقل يلم شعثها، ويجمع شملها، وفي ٣٠٩هـ هجم على حكومة بني إدريس أحد أمراء الخليفة الفاطمي، ونفى ملكهم يحيى الثالث، وبذلك طوى بساط بني إدريس، ثم كان الأمر من ٣٠٥هـ إلى ٤٢٧هـ إلى العبيديين، ولم يكن فيهم ملك ذو شأن ومكان.

وقد شغلت حكومة مصر الفاطميين بنفسها، حتى انصرفت همتهم عن المغرب مع الأيام وعلى ذلك فانحسرت سلطتهم عن المغرب[1].

المرابطون:

يرجع نسبهم إلى القبيلة البربرية «صنهاجة»، كان يحيى بن إبراهيم الصنهاجي راجعاً من الحج فوافاه في القيروان أبو

(١) راجع تاريخ ابن خلكان ٢ ـ ٢٢٥ طبعة ١٢٨٤ هـ.

www.abulhasanalinadwi.org

عمران أحد العلماء الأتقياء، الذي أثار في قلبه روح الإصلاح والدعوة إلى الخير، فأتى قبيلته مع عبدالله أحد العلماء الصلحاء وبنى زاوية ومدرسة، جذبتا إليهما ألفاً من الصنهاجيين، يشتغلون فيهما بالعلم والعبادة وتسلطوا على معظم مناطق السودان ومراكش، ومن أجل إكثارهم من بناء الرباط أطلق عليهم اسم «المرابطين» وكانوا يغطون وجوههم لدى الرحلة والركوب باللثام فعرفوا بالملثمين أيضاً، وقد سموا المتونة أيضاً، لان جنتهم من «ملتا» وسقط عبدالله شهيداً في معركة في ٤٥٠هـ، وخلفه أبو بكر بن عمر اللمتوني الذي بسط نفوذه فيما بين تلمسان إلى البحر المحيط الأطلسي وتنازل عن الحكومة عندما شكت إليه عجوز وأسند الحكم إلى السلطان يوسف بن تاشفين الذي يزدان تاريخ مراكش بمآثره وبطولاته، والذي صرف عمره في ترفيه الشعب، كان شديداً على نفسه، رحيماً على غيره، يعيش حياة التقشف والجلادة، ويلبس الصوف، وعاش حياته كلها على خبز الشعير واللحم ولبن الإبل، تولى الحكم في ٥٦ من عمره ومات في ١٠٠ من عمره بعدما حكم ٤٤ سنة.

وفي ٤٥٤هـ - ١٠٦٢م بنى مدينة مراكش، وبنى بها قلعة، وبجوارها مسجداً، وساهم في بنائه كالعمال العاديين، وقد افتتح المناطق إلى الجزائر، وفي ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م غزا يوسف الأندلس على طلب مسلميها البائسين المنكوبين، وقتل

www.abulhasanalinadwi.org

من القوات المسيحية ٨٠ ألف فارس، ومائتي ألف راجل، واستشهد من المسلمين ثلاثون ألفاً وغزا إسبانيا في ٤٨١هـ ١٠٨٨م، وأعاد الكرة عليها في ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م، ورجع إلى مراكش بعدما استعمل عليها أحد رجاله.

الموحدون:

وحكم بعده ابنه علي ٣٧ عاماً، لكنه كان ميالاً إلى العبادة وإصلاح النفس، لكنه دام على الحكم، حتى برز أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن تومرت كقوة محاذية له، وظل يحارب أحدهما الآخر ١٣ عاماً حتى توفي علي بن يوسف في ٥٣٤هـ - ١١٤٣ م، وقد كان محمد بن تومرت يتمتع - إلى جانب العلم والورع والتقوى - بسليقة الحكم والإدارة، ولد في بيت فقير في المال والثروة، كان أبوه موظفاً في مسجد يقوم بإنارة السراج فيه، تعلم محمد أولاً في إسبانيا، ثم هداه الحرص على التوسع إلى الامام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي (م ٥٠٥هـ) فلازمه ثلاث سنوات، وتعلم عليه العلم والحكمة كما تعلم طريق الحكم الإسلامي، يقول العلامة شبلي النعماني في كتابه «الغزالي» باللغة الأردية:

«تعمق في العلوم فى صحبة الامام الغزالي، وعزم - بحكم طموحه أو بفضل تعليم وتربية الامام - على أن يطوي بساط محكومة علي بن يوسف في إسبانيا، ويحل محلها حكومة

www.abulhasanalinadwi.org

جديدة، وعرض هذه الفكرة على الامام فاستحسنه لأنه بدوره كان يتوق إلى حكومة تتولى نشر العدل والخير، لكنه سأله عن الاعدادات اللائقة لهذه المهمة العظيمة، وسمح له بذلك، لما اطمأن إلى هذا الجانب»[1].

واتخذ ابن تومرت جبل تينملل بجانب السوس قاعدته العسكرية، وتجمع عنده نحو ٢٠ ألفاً من القوات. بفضل قوة خطابته، وادعائه المهدوية، وخاض معارك عديدة مع المرابطين، يقول فيه القاضي محمد سليمان المنصور فوري الهندي:

«والذي يستخرج الثناء على ابن تومرت هو زهده في الدنيا وظل يلازم عيشة الكفاف التي التزمها في أيام تحصيله، إلى آخر حياته، يقال أن أخته كانت تغزل، وكانا يعيشان على ذلك، وكان يأتدم بالخل أحياناً، وأحياناً بالزيتون، وغنم مرة أموالاً كثيرة، وطلب إليه الناس أن يوزعها عليهم وألحوا في ذلك، حتى أحرقها ابن تومرت وأعلن مدوياً: «من كان معي من أجل المادة فقط فليكن نصيبه الحرمان واليأس».

ولما حضره الموت استدعى عبدالمؤمن، وأهدى إليه كتاباً للامام الغزالي وأوصاه بالتمسك به، وتوفي في ٥٣٢هـ، وكانت ولادته في ٤٨٥هـ، وفي ٥٤٣هـ افتتح عبدالمؤمن مدينة مراكش وقضى على حكومة المرابطين، وزحف إلى اسبانيا بمائة

(١) الغزالي ٢٤٦.

www.abulhasanalinadwi.org

ألف فارس وثلاثة مائة راجل في ٥٥٧هـ، ولكن وافاه الأجل في ٥٥٨، يقول الاستاذ محمد فريد وجدي وهو يتحدث عنه:

« كان فصيحاً عالماً بالأصول والجدل والحديث، مشاركاً في كثير من العلوم، ذا حزم وسياسة وإقدام، لم يقصد قط بلداً إلا فتحه، ومن مآثره بناء مدينة جبل طارق »[١].

ويقول: « وتولى بعده يوسف بن عبدالمؤمن... وكان شجاعاً عارفاً بأساليب الحرب، رقيق الطباع، حافظاً مطلعاً على أيام العرب، وأخبارهم، ميالاً إلى الفلسفة، وكان له دار كتب جمع إليها أنفس الآثار، وكان ممن صحبه من العلماء أبو بكر محمد ابن الطفيل الفيلسوف المشهور وابن رشد المعروف بالحفيد وغيرهما من فحول الرجال »[٢].

وتولى بعده ابنه يوسف أبو يعقوب الذي هزم الفونس التاسع ملك قشتاله (كاستيل) وقتل عدداً كبيراً من رجاله، واستولى على ذخائره.

يقول محمد فريد وجدي:

« كان المنصور هذا (يوسف أبو يعقوب) يعتبر أعظم ملوك الموحدين، وكانت أيامه أيام أمن ورخاء وجلال، فلما كانت سنة ٥٩٥هـ جمع أعيان دولته وعهد بالملك لابنه محمد الناصر لدين الله وتنازل هو عن الحكم وانقطع لنفسه »[٣].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٨ ـ ٦٧١.
(٢) المصدر نفسه ٨ ـ ٦٧٢.
(٣) المصدر نفسه ٨ ـ ٦٧٤.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان محمد الناصر لدين الله يملك من القوة والمنعة ما يخافه جميع الملوك المسيحيون كان عنده مليونان من القوات، وحينما زحف بجيشه الجرار إلى الأندلس، ارتجت له جميع بلاد الإفرنج المتاخمة للأندلس، وكتب إليه كثير من ملوك البلاد يسألونه السلام وذلك في ٦٨٠هـ وتألبت على مواجهته كل القوى المسيحية في أوربا، وكان الانتصار في هذه المعركة من المؤكد، ولكن المسلمين انهزموا شر هزيمة بسبب وزير الناصر المسمى بابن جامع، فانه أظهر الإسلام نفاقاً وتمكن من فؤاد الناصر، فأقصى بمشورته وجوه العرب والبربر الذين كانوا يحيطون به، وكانت هذه النكسة سنة ٦٠٩هـ[1]، ومات محمد الناصر في ٦١٠هـ.

وقام بالأمر بعده ابنه يعقوب بن يوسف، وفي عهده أيضاً انهزم المسلمون هزيمة أخرى منكرة في ٦١٤ هـ، وضعف أمرهم بها في البلاد جداً، وتعاقب بعده ملوك صغار لقوا الهزيمة على يد بني مرين، وكان آخر ملوكهم إسحاق بن إبراهيم، يقول محمد فريد وجدي:

«فبايع الموحدون إسحاق بن إبراهيم أخا المرتضى بعد أن هربوا إلى جبال تينملل، فبقي هناك إلى سنة ٦٧٤هـ، ثم قبض عليه وجيء به إلى سلطان بني مرين يعقوب عبدالحق فقتله هو وجميع أقاربه، فانقرضت بهم دولة الموحدين بعد أن

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين ٨ - ٦٧٢ - ٦٧٥.

www.abulhasanalinadwi.org

دامت ١٢٦ سنة».

«كانت هذه الدولة من أعظم الدول التي سادت بلاد المغرب، وأكبرها بطشاً، وقد كانت لها أساطيل تمخر في البحر وتقاتل أعداءها وكانت حدودها تمتد إلى الصحراء الكبرى جنوباً، وإلى بحر الظلمات غرباً، وإلى الرمال الفاصلة لها عن مصر شرقاً، وإلى بحر الروم ومضيق جبل طارق شمالاً، وكانوا يمتلكون مع هذا بلاد الأندلس يتبعها مدائن إشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة والمرية بحيث كانت جميع شواطىء النهر الاسباني المسمى بالوادي الكبير تابعة لهم، وكانوا يملكون جميع القسم الجنوبي من بلاد البرتغال أيضاً»[1].

دولة بني مرين من ٦١٤هـ إلى ٨٩٠هـ :

كان بنو مرين من جبل زناتة، بسطوا نفوذهم على تونس ومراكش تدريجياً، وكان سلطانهم الأول عبدالحق بن محيو، وخلفه ابنه سعيد عثمان بن عبدالحق، الذي حارب الموحدين ٢٣ عاماً، حتى مات قتيلاً سنة ٦٣٨هـ.

وقام بالأمر بعده أخوه أبو معروف بن عبدالحق، الذي دحره الموحدون، وقتلوه في الحرب في ٦٤٢هـ - ١٢٤٤م، وقد كان بنو مرين أحكموا نفوذهم في عهدهما في مراكش الشرقية.

وخلفه أبو بكر بن عبدالحق، الذي افتتح في ٦٤٣هـ -

(١) نفس المصدر ص ٦٧٧.

www.abulhasanalinadwi.org

١٢٤٥م مكناسة وفاس وتوفي عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م بعدما دام على الحكم ١٤ عاماً.

وتولى الأمر بعده يعقوب بن عبدالحق في ١٢٥٨م، الذي أحكم جذور بني مرين وجعل دولتهم لا تنال، وقام بأعمال جليلة لامعة في التاريخ، جاء في دائرة المعارف القرن العشرين:

«كان هذا السلطان من كبار سلاطين المغرب، فإن له غير هذه الفتوحات أعمالاً خيرية، فقد بنى بيمارستانات للمجانين والمجذومين والعمي والفقراء وأجرى على جميعها المرتبات، وبنى مدارس لطلبة العلم، ووقف عليها أموالاً طائلة»[1].

وكان قد وزع أوقاته من الليل والنهار، فكان يصرف الثلث الأخير من الليل في الصلاة والقيام، وبعد صلاة الفجر يشتغل إلى نحو الساعة العاشرة بدراسة الأخلاق والفلسفة، ثم ينصرف بعد صلاة الضحى إلى الأعمال الرسمية، قد غزا إسبانيا في ٦٧٤هـ - ١٢٧٥م، ثم هجم عليها للمرة الثانية في ١٢٧٧م، وساعد ابن الأحمر صاحب الأندلس وباني الحمراء وخاض مع الفانسو حروباً كثيرة، حتى تسلم الأندلس، وأسلمها إلى بني الأحمر، ورجع إلى مقره ومات في ٦٨٥هـ - ١٢٨٦م، بعد أن حكم ١٩ عاماً.

وخلفه ابنه الناصر الذي أكسب دولة بني مرين رونق الحضارة وعزة الملك وفي عهده اخترع العرب البارود

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٨ - ٦٨١.

www.abulhasanalinadwi.org

واستعملوه في حروبهم[1]، وتوفي في ٧٠٦هـ نائماً بطعنة خصي اسمه سعادة.

وبعد ذلك جاء على عرش دولة بني مرين المنصور بالله أبو الحسن علي، وكان أفخم بني مرين دولة، وأكبرهم ملكاً، وأكثرهم أبهة، وآثاراً بالمغربين والأندلس[2] ولكن الاسبانيين والبرتغاليين استغلوا ضعف الحكام والسلاطين الآخرين من بني مرين وبدأوا يغيرون على مراكش، وفي آخر عهد دولة بني مرين كان البرتغاليون قد استولوا على أكثر ثغور مراكش فاستولوا على سبتة ٨١٨هـ - ١٤١٥م وعلى قصر المجاز أو قصر مصمودة سنة ٨٦٢هـ وعلى طنجة سنة ٨٦٩هـ وعلى أصيلا سنة ٨٧٦هـ وعلى مدينة آسفي وبعض جهات السوس في السنة المذكورة وغير ذلك بحيث لم يبق من ثغور مراكش بيد أهلها إلا القليل[3].

وكان عبدالله الثالث آخر سلاطين بني مرين، وكانت دولة بني مرين قد تضعضع بنيانها، وتفككت عراها، فتغلب عليها بنو وطاس، وداموا يحكمون منذ ٨٧٦هـ إلى ٩٦١هـ وكان أول سلاطينهم أبو عبدالله محمد الشيخ الذي في زمانه محيت دولة المسلمين من الأندلس، وترامت بهم الأقطار، وذهب غالبهم إلى المغرب الأقصى، وتونس وطرابلس ومصر، ومات

(١) أيضا ص - ٦٨٢.
(٢) أيضا ص - ٦٨٣.
(٣) أيضا ص - ٦٨٧.

www.abulhasanalinadwi.org

السلطان محمد الشيخ سنة ٩١٠هـ - ١٥٠٠م، وقدم سلطان غرناطة أبو عبدالله بن الأحمر فاستوطن فاس تحت رعاية السلطان محمد الشيخ، وخلفه ابنه محمد الملقب بالبرتغالي، الذي ظل مصروفاً إلى حرب المسيحيين في مناطق الثغور، مما مكن الأشراف السعديين من بسط النفوذ، وظهور دولتهم سنة ٩١٥هـ، ومهد لانقلاب دولة بني وطاس.

دولة الأشراف السعديين من ٩١٥هـ إلى ١٠٦٩هـ :

الأشراف السعديون ينتسبون إلى محمد النفس الزكية بن عبدالله المحض بن الحسن السبط بن علي رضي الله عنهم وكان العهد عهد الانحطاط الشنيع، فقد استولى البرتغاليون - بعدما استولوا على مغادور ومزغان في سنة ٣ - ١٠١٢هـ - ٧ - ١٥٠٦م على آسفي وأغادير وآزمور، وبلغت الحروب الأهلية إلى أن البرتغاليين كلما دعوا إلى الصلح قالوا: من هو أميركم الذي تجتمع عليه كلمتكم؟ حتى نكلمهم به، فاتفقت كلمة جمع من العلماء والأمراء العقلاء على أن يبايعوا الشريف محمداً من أهل درعة.

وكان السبب في قدومهم إلى المغرب أن أهل درعة كانت لا تصلح ثمارهم فقيل لهم: لو أسكنتم بين ظهرانيكم أحد الأشراف لصلحت زراعتكم، فأتى أهل درعة بالمولى زيدان ابن أحمد فصلحت زراعتهم وسموا بالسعديين تفاؤلاً بذلك[1]،

(١) نفس المصدر ص - ٦٩٠.

www.abulhasanalinadwi.org

مات في خيمته، وقتل ملك البرتغال غريقاً في نهر، وقتل المتوكل أيضاً[1].

وقام بالأمر بعد عبدالملك، الشريف أبو العباس أحمد المنصور بالله سنة ٩٨٦هـ الذي اتسع ملكه حينما استولى على تومبكتو، وكانم، وكاغو، وغيرها من بلاد السودان، وكانت بينه وبين القوى الاوربية علاقات ود، وكانت بينه وبين الملكة إليزابت مراسلات ومكاتبات وبنى المنصور مباني عظيمة منها القصر المشهور المسمى بالبديع، صرف عليه مالاً طائلاً، فرشه بالرخام والفسيفساء والطنافس والحرير، وأتم بناءه في ١٧ عاماً، وكانت وفاته سنة ١٠١٢هـ بالوباء الذي كان انتشر في تلك السنين[2]، وقد هدمه مولاي إسماعيل في عهده.

ووقعت الدولة بعد المنصور فريسة حروب داخلية، تولى الأمر بعده ابنه السلطان الشريف أبو المعالي زيدان، وفي عهده أصيب المسلمون في الأندلس بالكارثة العظيمة، فقد كانوا فقدوا غرناطة ٨٩٧هـ، ويعيشون فيها ذعراً وخوفاً وبؤساً، وفي ١٠١٦هـ قد أجل فيليب الثاني ملك إسبانيا لجلاء المسلمين عن الأندلس ثلاثة أيام وأعلن أنه من وجدناه بعد ذلك قتلناه، فتفرق المسلمون في الأمصار والأقطار، وضوى غالبهم إلى فاس وتلمسان وهراة، وبعضهم إلى الجزائر وسلا وتطوان وفي عهده استولى على العرائش الاسبانيون، وعلى

---

(١) المصدر نفسه ص ـ ٦٩٢.

(٢) راجع المصدر نفسه للاطلاع على التفاصيل.

www.abulhasanalinadwi.org

وكان أصلهم من ينبع النخل من أرض الحجاز.

وكان أول ملوكهم القائم بأمر الله أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن، الذي خاض معارك عديدة ضد البرتغاليين، وخرج منها فائزاً منتصراً، وتوفي سنة ٩٢٣هـ.

وحكم بعده ابنان له، وأصغرهما محمد أبو عبدالله المهدي، الذي طرد البرتغاليين من كثير من المناطق، وافتتح مكناسة، وفاس سنة ٩٥٧هـ - ١٥٥٠م، وطرد أبا حسون الذي انحاز إلى الأتراك في الجزائر ثم عاد أبو حسون إلى فاس وافتتحها بمساعدة صالح باشا وقهر المهدي، وبما أن المهدي كان يحقد على الأتراك العثمانيين لاستيلائهم على المغرب الأوسط، ويطيل لسانه بسبِّ السلطان سليمان القانوني، فأضمر له هؤلاء الشر وقاتلوه، وقتلوه سنة ٩٦٤هـ، وكان المهدي عالي الكعب في العلم، يحفظ القرآن الكريم، وصحيح البخاري، وديوان المتنبي ودواوين الشعراء الآخرين، وخلفه ابنه أبو محمد عبدالله الغالب بالله سنة ٩٦٤هـ، وخاض عبدالله حروباً مع البرتغاليين وتوفي سنة ٩٨١هـ.

وقام بالأمر بعده أبو عبدالله محمد المتوكل على الله، فلما كانت سنة ٩٨٣هـ قدم عليه عمه عبدالملك بن الشيخ بجيش من الترك، فبدد ملكه، رغم تقدم المتوكل بجيش فيه ١٢٥٠٠٠ مقاتل، ومعه حليفه ملك البرتغاليين لقتال عبدالملك، وحدث بين الفريقين قتال عنيف، انتهى بانتصار جيش عبدالملك، وكان قد

www.abulhasanalinadwi.org

مهدية البرتغاليون، توفي زيدان في ١٠٣٧هـ[١]، ولم يأت بعد ذلك ملك يذكر شأنه، وتسجل أعماله.

دولة الأشراف السجلماسيين:

يتصل نسب سلاطين هذه الدولة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصلهم من ينبع النخل بأرض الحجاز، وكان أول من نزح منهم إلى المغرب المولى حسن بن قاسم في أواخر القرن السابع، في أول عهد الدولة المرينية، وكان مسلماً عالماً بكثير من العلوم صالحاً زاهداً، ومن أولاده السيد علي المثنى، وهو جد الأشراف الحاليين الحاكمين بالمغرب، وكان له ولد سمي الشريف محمد، وهو أول من تولى الرئاسة منهم، وتوفي سنة ١٠٦٩هـ، وتولى الأمر في حياته ابنه محمد في ١٠٥٠هـ الذي خرج عليه أخوه المولى الرشيد بن الشريف بعد وفاة أبيه، وحاربه، فمات المولى محمد في القتال برصاصة وذلك في سنة ١٠٧٥هـ، وقد استطاع الرشيد أن يجعل دولته خلال حكومته لثمانية أعوام أن تضرب بجرانها، وكان الانجليز يدعونه «تفيلة أعظم» توفي سنة ١٠٨٢هـ.

وتولى بعده أخوه المظفر بالله أبو النصر الشريف إسماعيل في ٢٦ من سنه وحكم ٥٥ عاماً، وكانت الدولة في عهده موطدة الأركان راسخة البنيان، وكان هذا السلطان واسع الملك، أما مبانيه بقلعة مكناسة، وقصوره، ومساجده ومدارسه وبساتينه

---

(١) راجع للتفصيل المصدر نفسه ص ٦٩٢ ـ ٦٩٤.

www.abulhasanalinadwi.org

فشيء فوق المجهود[1] .

ويقول العقيد اسكات: «كان إسماعيل متنوراً، وأكثر حزماً بالنسبة إلى سلاطين مراكش الآخرين، وأدنى ما يدل على ذلك، أن كل ما رأيته في مراكش من المباني الخيرية، كلها بنيت في عهده كما قيل لي».

وكانت الشوارع في مكناسة ومراكش وفاس في عهده ـ فيما يقول مؤلف «نزهة الهادي» ـ معمورة بالغادين والرائحين، وكانت المرأة وحدها تسافر من تلمسان إلى دادنول، ولا تحدث نفس أحد بأن يتعرض لها، وكان يحافظ على الصلوات الخمس بالجماعة وأينما حل لأيام بنى مسجداً، ويؤمه ليعاد كل صلاة مكتوبة، وكان يحمل معه دائماً المصحف في الحل والترحال.

وكان إسماعيل كثير العيال، وكانت صلاته مع الحكومات الأوربية جيدة، وكانت كفته راجحة، يقول الأديب الفرنسي الشهير والتير:

«كان ملك البرتغال وأمير البحر بقشتالة وغيرهما قد خضعوا له إلى أن مدوا إليه يد طلب المساعدة، لكن المولى اسماعيل الذي كان محارباً شجاعاً وحازماً بطاشاً، قد رضي بتقديم المساعدة على شروط كانت خطراً على المسيحية، وسبب عار وشنار لملك البرتغال، فقد طلب منه مقابل ذلك أن يدفع إليه

(١) المصدر نفسه ص ـ ٦٩٥ ـ ٦٩٨.

www.abulhasanalinadwi.org

إبنه وحصوناً، ومن أجل ذلك فلم تتم المساعدة، وظل المسيحيون يبدد بعضهم بعضاً دون أن يفسحوا الطريق إلى بلادهم للوحشيين (المسلمين).

وقد استطاع المولى إسماعيل تخليص جميع الموانىء من الأجانب سوى سبتة، تلك الموانىء التي كانوا مستولين عليها منذ عهد بعيد، وتوفي في ١١٣٩هـ - ١٧٢٧م عن ٨١ سنة[١].

ولم يستطع أخلاف إسماعيل أن يحتفظوا بشوكة الحكومة ومنعتها، ويبقوا عليها مرهوبة الجانب، مرفوعة الرأس، وكان منهم المولى محمد الذي كان يتمتع بوفور العقل وحسن التدبير والحزم، وخاض حروباً كثيرة، والذي عقد في ١١٨٩هـ شروط صلح بينه وبين الفرنسيين وأوجد بينه وبين السلطان مصطفى العثماني صلة صداقة وطيدة، وعقد المعاهدة مع حكومات أوربية عديدة، وزوج ابنته لشريف مكة، وأرسل أموالاً طائلة توزع على أشراف الحجاز، وجوائز عظيمة للعلماء والنقباء وغيرهم بمكة والمدينة، وفي ١١٨٢هـ - ١٧٦٨م هزم البرتغاليين في معركة أشنع هزيمة، وعقد مع فرنسا معاهدة تجارية وأمر بأن يخطب للسلطان العثماني على المنابر.

وكانت للمولى سليمان صلات عميقة مع نابليون، وحدث في

(١) راجع للتفصيل تاريخ مراكش ١ - ١٨٥ - ٢١٢

www.abulhasanalinadwi.org

عهده في ١٢٢٦هـ حادث جلل، وهو انتشار الثورة بين البربر.

وتولى الأمر بعده ابن أخيه المولى عبدالرحمن بن هشام الذي ساعد الأمير عبدالقادر حينما استولى الفرنسيون على الجزائر في ١٢٤٦هـ، وبسبب عدم الأخذ بوصية الأمير لاقت مراكش هزيمة نكراء على يد فرنسا في ١٢٦٠هـ - ١٨٤٤م، توفي السلطان عبدالرحمن ١٢٧٦هـ ، وقام بعده بالأمر ابنه المولى محمد.

يقول محمد فريد وجدي وهو يتحدث عن السلطان محمد، ويلقي الضوء على عهده:

«في أول حكم هذا السلطان نشب القتال بين المراكشيين والاسبانيين، وكان السبب في ذلك أن سبتة كانت للاسبانيين، وكانت العادة قد جرت بين جنود التخوم الفاصلة بين الحدين أن يبنوا لأنفسهم بيوتاً من خشب ليقيموا فيها، رأى جنود مراكش ذات يوم أن جنود إسبانيا يقيمون لهم بناء بالحجر على شكل قلعة على الحدود، فمنعوهم من بنائها بالقول، فلم يمتنعوا فهجموا عليهم وهدموا البناء، وقتلوا منهم من قاوم، فثارت ثائرة سفير إسبانيا في طنجة، وطلب معاقبة الجناة وسمى منهم ١٢ رجلاً بالاسم، وطلب قتلهم بعد استقدامهم إلى طنجة فأخذ والي طنجة يهدىء من ثائرته ويحاول إقناعه فلم يقنع، فتوسل إليه بسفير انجلترا فلم يفد التوسل، فأخبر

www.abulhasanalinadwi.org

السلطان الخبر فجمع السلطان وزراءه ومستشاريه، وبسط لهم الأمر فعدوها إهانة لم يسبق لها مثيل، وأجمعوا على وجوب الحرب إن اقتضت الحال، فرفض السلطان طلبات إسبانيا، فكان هذا الرفض داعياً لقطع العلائق بين المملكتين، وكتب السلطان للثغور بالاستعداد وللقبائل بجمع الجنود، وما هي إلا أيام حتى برز في جهة سبتة جيش من الاسبانيين مؤلف من ٢٠ ألف مقاتل، كاملي العدد والآلات والذخائر، فقابلهم المراكشيون بشجاعتهم المعهودة، ولكن ماذا تغني الشجاعة أمام النظام والآلات الجهنمية، فكانت تحصدهم مدافع الاسبانيين، وبعد عدة وقائع انهزموا، وتبعهم الاسبانيون إلى مدينة «تطوان»، وكان عددهم وهم بها ٧٠ ٠٠٠ مقاتل، وكان ذلك سنة ١٢٧٦ - ١٨٥٨م فاستولوا على ما بها من الأموال، ولم يجدوا بها إلا مدفعاً واحداً وقليلاً من البارود، فحولوا مسجد سيدي عبدالله البقال إلى كنيسة، وعاملوا الأهالي بقساوة، ثم ذهب أسطولهم إلى أصيلا فهدم وأتلف كثيراً منها، ثم اضطرت مراكش لطلب الصلح فاجتمع المندوبون، فتشدد الاسبانيون في مطالبهم، وقدموا شروطاً لم يرض بها السلطان، فعاد القتال أشد مما كان، وحدثت عدة وقائع، انتصر المراكشيون فيها كلها، ومع هذا فقد تم الصلح على الشروط التي أرادها الاسبانيون إلا قليلاً، وتم بينهم الاتفاق سنة ١٨٦٠م - ١٢٧٦ هـ.

وكان أهم شروط الصلح أن تدفع مراكش لاسبانيا مائة

www.abulhasanalinadwi.org

مليون فرنك، وتتنازل لها عن قطعة أرض جنوب سبتة، وأن يكون لها فرضة بحرية على المحيط الأطلانطيقي، وهي التي سموها «سانت كروز»، وأن يكون لها الحق في إقامة وكيل في مراكش، والتصريح لقسوسها بإنشاء المدارس والأديرة، وأن يكون لها نفس الامتيازات التي منحت لأعظم الدول الأوربية الأخرى»[1].

وتولى الأمر بعد ذلك مولاي الحسن (١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م - ١٣١٢هـ - ١٨٩٤م) الذي شغله روع الثورات الداخلية خمس سنوات، وكان ذا همة عالية إلى جانب الحزم والعزم، وقد قام باجراء إصلاحات كبيرة في المملكة، وعنى بتنظيم الجنود على الطراز الحديث وجلب الحديث الأحدث من الأسلحة آنذاك، وأرسل عدة من شبان بلاده إلى بعض مدارس فرنسا والمانيا للتدريب على الفنون العسكرية والعلوم الرياضية، كما جلب من هذه البلدان خبراء وضباط عسكريين لتدريب قواته وأقام في ١٣٠١هـ - ١٨٨٣م مطبعة في طنجة وأصدر صحيفة باسم «المغرب الأقصى» باللغة الاسبانية، ثم أصدر «ريويل دومراكو»، كما أصدر في ١٨٨٤م «تايمز آف مراكو»، وكان في طريقه إلى فاس والرباط لردع رعاياه فوافته المنية ١٣١١هـ - ١٨٩٤م.

وقد أوقف استيراد التبغ بعدما استفتى العلماء، وكان بعيد الهمة والنظر كسلفه، وقد عرض عليه الانجليز خطة ذات ١٦ مطلباً من أجل ترسيخ قدمهم في المملكة فرفضها رفضاً باتاً.

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٨ - ٧١٢ - ٧١٣.

www.abulhasanalinadwi.org

وخلفه ابنه المولى عبدالعزيز الرابع ١٣١٢هـ - ١٨٩٤م في ١٦ من سنه، فثارت عليه القبائل على عادة أهل المغرب لدى تولي كل سلطان جديد، ولما رأت الدول هذه الثورات عند إقامة المولى عبدالعزيز سلطاناً، اضطرت إلى المحافظة على رعاياها في المملكة، فأرسلت كل من فرنسا وألمانيا وإنجلترا وإيطاليا وإسبانيا والبرتغال، سفناً حربية إلى طنجة، ولما استطاع السلطان إخضاع هذه القبائل حتى أذعنت إلى الطاعة عادت سفن هذه الدول إلى بلادها.

وقد أدخل السلطان إصلاحات كثيرة على النظام العسكري وعني بتدريب القوات على النظم الاوربية، وعندئذ نهض أخوه مولاي عبدالحفيظ، وأثار عليه القبائل بحجة أنه ينزع لمجاراة الاوربيين في عوائدهم، فتنحى السلطان عن السلطة على إيعاز من فرنسا. فاستبد بالأمر مولاي عبدالحفيظ في ١٣٢٩هـ - ١٩٠٨م، ولكن ما لبث حتى اضطر إلى الاستقالة، وبسطت فرنسا في ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م حمايتها على «الدار البيضاء» وفاس ومدن أخرى، وفي نفس العام خربت الرباط، وصارت الحكومة لعبة بيديها، وعينت مولاي يوسف سلطاناً الذي وقف موقف المهادنة مع فرنسا نظراً إلى الملابسات[1].

يقول روم لاندو (أستاذ العلوم الاسلامية وعلوم إفريقيا الشمالية في جامعة بيسفك):

(١) أنظر تاريخ مراكش ٢ - ٢٢، ٤٣، ودائرة معارف القرن العشرين المجلد الثامن.

www.abulhasanalinadwi.org

في ١٣٤٦هـ - ١٩٢٧م تولى الملك ابن مولاي يوسف محمد الخامس في ١٨ من سنه، فأعلن في خطابه بطنجة الحق الشرعي لشعب مراكش، وضغط على إيجاد العلاقات مع العالم العربي، ولم يكن من الممكن كسب معركة التحرير في مراكش بدون اعتبار محمد الخامس قائداً دينياً ودنيوياً»[١].

والسلطان محمد الخامس والد السلطان الحالي مولاي الحسن الثاني، وكان سلطاناً ثاقب النظر، قوي الإرادة، صالحاً حازماً، تقياً لله، وكان موضع الحب والاحترام والقبول عند الشعب من أجل مزاياه وورعه وتقواه.

يقول روم لاندو:

«بز احترامه احترام جميع السلاطين الماضين، وكانت كل طبقه كأنها تعبده، وجعل الناس يعتبرونه ولياً مقدساً»[٢].

وكان السلطان الحالي الحسن الثاني ساعد والده الأيمن في حياته، ومستشاره الخاص وزميله في حركة تحرير مراكش.

وقد اعتقلتهما حكومة فرنسا في ٢٠ أغسطس ١٩٥٣م وعليهما ملابس متواضعة، ووضعتهما على فرش الطائرة في برد قارس، واتجهت الطائرة إلى (Corsica) ثم جيء بهما إلى «مدغشقر» وحبسا في فندق بال كان سقفه يترشح، ثم عادا إلى مراكش في نوفمبر ١٩٥٥م، وتحررت البلاد في ٢ مارس

---

(١)، (٢) Hassan II King Of Morocco

www.abulhasanalinadwi.org

١٩٥٦م[1]، وبعدما رجع محمد الخامس من المنفى، واستقلت البلاد، أعطى ولده (الملك الحسن الثاني) مناصب حساسة، ثم تولى الملك بعد وفاته في ٢٦ فبراير ١٩٦١م.

ولازم السلطان الحسن الثاني موقف الاعتدال، فهو صديق الدول العربية والاسلامية، كما أن له علاقات الصداقة مع الدول الاوربية بحكم موقع بلاده، ولكن ليس على حساب أنفته وإبائه، وحينما أرادت إسبانيا أن تخلي في الصحراء، فقام للإستيلاء عليها بالمسيرة عام ١٩٧٥م الخضراء في ثلاث مائة وخمسين ألفاً من أبناء وطنه، واستولى على الصحراء ولم يبال بخطر هجمات إسبانيا، وقد كانت الروح الدينية أحد العوامل في هذه المسيرة، فقد كان الناس مقبلين إلى الدعاء والإنابة والصلاة والتلاوة، ولما بلغوا الصحراء صلوا ركعتين شكراً لله.

وكان هتاف هؤلاء المجاهدين العزل ـ وكان فيهم ١٣ ألف سيدة أيضاً ـ الكفاح الكفاح، القرآن هو السلاح، وكانت الصحراء تحت استيلاء إسبانيا منذ ٩٠ سنة، وقد قطع هؤلاء المجاهدون لتخليصها مشقة مسافة ٩٠ ميلاً إلى مدينة العيون، وعانوا صعوبات في الطريق، وتتصل حدود هذه الصحراء بعدد من البلاد، فتتصل عبر ألف ميل بموريتانيا، وعبر ٥٠ ميلاً بالجزائر، وعدد سكانها نحو ٧٤ ألفاً من النفوس.

وهذه الصحراء جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى، التي

(١) نفس المصدر ص ٤٩.

www.abulhasanalinadwi.org

تمتد على مسافة ٨٠ مليون كلومتر مربع، وهي في ملك ١٣ دولة إفريقية، وقد بلغها المجاهد المؤمن عقبة بن نافع من جانبها الشمالي في ٦٢ هـ.

وأهميتها المادية أنها في الدرجة الرابعة في العالم في إنتاج «فاسفيت» وقود القوة النووية وكذلك سواحلها من أهم مراكز صيد الأسماك في العالم، وقد جرت المفاوضات السياسية فيما يتصل بمصير هذه الصحراء فيما بين مراكش والجزائر وموريتانيا، وإسبانيا إلى مدة طويلة، ولم تسفر عن نتيجة، فتقدمت مراكش واستخدمت بسالتها، وقامت بهذه المسيرة الآمنة الموفقة المثمرة.

الطرق الصوفية:

سوف لا يتم أي تاريخ لمراكش ما لم تذكر الطرق الصوفية، لان المسلمين نالوها بفضل المجاهدين والصوفية، الذين كانوا يجمعون بين الدعاء والتسبيح والمناجاة في خلوات الليل، والتكبير المتواصل في النهار على صهوات الخيل، فقد كان الإسلام عندهم ديناً ودولة، وسيفاً ومصحفاً، وهؤلاء الذين قضوا على نفوذ المسيحية، ونفخوا روح اليقظة الاسلامية في الزُّهاد والعلماء.

يقول الأمير شكيب أرسلان رواية عن المسيو بونه موري:

«في أواخر القرن الحادي عشر للمسيح طمست أكثر

www.abulhasanalinadwi.org

الكنائس الأرثوذكسية التي كانت ممتدة على ساحل إفريقيا الشرقية، ومن مصر إلى المغرب إلا بعض جماعات لبثت أشبه بجزر صغيرة مجهولة في وسط الاقيانوس الاسلامي »[1].

ويقول: « وكان الشرفاء أعقاب إدريس، من أتباع العقيدة الصوفية، وكانت هذه العقيدة تقرأ في فاس وتونس، وهما أعظم مراكز العلم بإفريقيا، وقد أخذ بها خلق كثيرون، ووصلت الطريقة القادرية إلى إسبانيا، فما زالت دولة العرب من غرناطة انتقل مركز الطريقة القادرية إلى فاس، وبواسطة أنوار هذه الطريقة زالت البدع من البربر، وتمسكوا بالسنة والجماعة.. أما الطريقة الثانية فهي الشاذلية نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي، أخذ عن عبد السلام بن مشيش، الذي أخذ عن أبي مدين، وكانت ولادة أبي مدين في اشبيليه ١١٢٧م، وقرأ في فاس، وحج البيت الحرام، ثم استقر بعلم التصوف في بجاية، وتبعه خلق كثير انقسموا بعده إلى ثلاث فرق، الأولى الشاذلية المنتشرون في الجزائر، والثانية الدرقاوية الذين مركزهم في مراكش والثالثة المدينية الذين هم كثيرون في طرابلس الغرب »[2].

« وفي القرن الثامن عشر حصلت نهضة جديدة عند أتباع الطريقتين القادرية والشاذلية ووجدت طريقتان هما التيجانية والسنوسية.

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ٢ - ٣٦٠ طبع القاهرة ١٣٥٢ هـ.

(٢) نفس المصدر ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

www.abulhasanalinadwi.org

وبالاجمال فالقادرية هم أحمس مبشر في الدين الاسلامي في غربي إفريقيا.. ومن مريديهم من يخدمون مهنة الكتابة والتعليم، ويفتحون كتاتيب، ليس في زوايا الطريقة فقط بل في كل القرى، فيلقنون صغار الزنوج الدين الاسلامي، اثناء التعليم، ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان وجامع القرويين بفاس، والجامع الأزهر بمصر، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي»[1].

«أما الطريقة الشاذلية فقد تأسست في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد، وهي من أوليات الطرق التي أدخلت التصوف في المغرب، ومركزها بوبريت في مراكش، وكان من أشياخها سيدي العربي الدرقاوي (المتوفى ١٢٤٩هـ ١٨٣٢م) الذي أوجد عند مريديه حماسة دينية شديدة امتدت إلى المغرب الأوسط وكان للدرقاوية دور فعال في مقاومة الفتح الفرنسي.

وهناك الطريقة التيجانية، مؤسسها أحمد بن محمد التيجاني المتوفى في فاس ١١٩٧هـ - ١٧٨٢م..، ولقد تبع الطريقة التيجانية عدد كبير من أهالي ماسينه في السودان، وأهالي فوتاتورو «Fautatoro» وفوتا جالون وأمة البلد، وصاروا من

---

(١) نفس المصدر ص ٣٩٥ - ٣٩٦.

www.abulhasanalinadwi.org

أشد أنصار الاسلام وانضموا حول راية الحاج عمر، فكانوا طيلة أربعين سنة، هم سادة السودان من تمبكتو إلى الاقيانوس الاطلانطيقي»[1].

(١) نفس المصدر ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧.

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

أسبوعان في المغرب الأقصى
الحنين إلى زيارة المغرب الحبيب وتحقيق هذه الأمنية الأثيرة

قد عشت في أمنية زيارة المغرب، وذلك لأنها تحمل شخصية ممتازة أصيلة، ومدرسة مستقلة، في التاريخ الإسلامي، والحضارة، والعلوم الاسلامية والأدب والشعر، والهندسة، والفن المعماري، وقد وجد الاسلام فيها مجالاً خصباً ليتجلى إعجازه، وقدرته على التأثير والإنجاب، والتخريج والانتاج، وكسب القلوب وفتح النفوس، وسحر العقول، فقد استطاع أن يخضع أمة عصية أبية مثل البربر، وجعلهم جزءاً من أجزاء القومية الاسلامية العالمية، وصهرهم في بوتقة الحضارة الاسلامية العربية، حتى استطاع أحد أبنائهم، طارق بن زياد، في نهاية القرن الأول الهجري أن ينشىء في إسبانيا (الأندلس) حكومة الاسلام.

وظلت إسبانيا طيلة ثمانية قرون ترتع في حظيرة الاسلام ومركز الحضارة الاسلامية، والعلوم والفنون الاسلامية، وقد كان مع طارق بن زيادٍ ١٢ ألفاً من المقاتلين شذ فيهم من كان من العرب، وجلهم أو كلهم كانوا من البربر، وقامت في إفريقيا الشمالية حكومات مرهوبة الجانب دوت صداها عبر

www.abulhasanalinadwi.org

قرون طويلة من «برقة» و «طرابلس» إلى ساحل المحيط الأطلانتيكي بل في أرجاء أوربا أيضاً، يجدر بالذكر منها بصورة خاصة حكومات «الفاطميين»[1] و «المرابطين» و «الموحدين» (ويصح أن ندعوها «امبراطوريات» إذا تحرينا الدقة في التعبير)، وقد كان مؤسس دولة الموحدين ينحدر من السلالة البربرية.

وقد أنجبت المغرب نوابغ العلماء وكبار الأئمة، أمثال القاضي عياض، وأبو القاسم، عبدالرحمن التهيلي (شارح سيرة ابن هشام)، وأبو الوليد الباجي (شارح الموطأ) والقاضي أبو بكر ابن العربي (صاحب أحكام القرآن) والكتب الجليلة في علوم الكتاب والسنة، وعبدالرحمن بن خلدون (صاحب المقدمة والسابق إلى فلسفة التاريخ والتمدن)، ومحمد بن محمد الإدريسي في الجغرافيا، وابن رشيق القيرواني في النقد والشعر والأدب، وابن بطوطة في السياحة، أولئك الذين تشبث بمؤلفاتهم وكتاباتهم علماء الشرق عدة قرون.

وأما في الزهد والورع، والاحسان وتزكية النفوس، فقد أجمع الناس على الاقرار بفضل المغاربة في هذه الناحية، ومواهبهم الطبيعية في هذا الشأن، حتى قالوا: إن الشرق أرض

---

(١) ويدعوهم معظم المؤرخين العرب من أهل السنة «العبيديين»، ويشكون في إنتمائهم إلى السلالة النبوية الكريمة، راجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» الجزء الأول المقال الذي يتحدث عن صلاح الدين الأيوبي.

www.abulhasanalinadwi.org

الأنبياء، والمغرب أرض الأولياء» وهاكم مثل الشيخ أبي الحسن الشاذلي، مؤسس الطريقة الشاذلية، ومحمد بن سليمان الجزولي مؤلف «دلائل الخيرات»، وسيدي عبدالعزيز الدباغ مؤلف «الإبريز».

ولكنه من عجيب الصدف أني - على شهرتي بكثرةالرحلات والجولات والزيارات، وقد زرت فعلاً في ١٩٦٣م إسبانيا - ما تمكنت من زيارة هذه الضفة الغربية من إفريقيا الشمالية التي تمتد من طرابلس (ليبيا) إلى «طنجة»، وما تشرفت في قارة إفريقيا إلا بزيارة مصر والسودان.

وقد ثار في الحنين إلى زيارة المغرب الأقصى أرض الظرف والروعة والجمال الطبيعي، بدراسة التاريخ حيناً، وبتأثير مجالس استاذي العلامة الدكتور الشيخ تقي الدين الهلالي وحديثه، وصديقي وزميلي الفاضل الاستاذ محمد العربي الهلالي[1] اللذان عشت معهما أعواماً طوالاً، وكانا يذكران مراكش قياماً وقعوداً، ويتحدثان عن حضارتها ومدنيتها، ومزاياها وخصائصها، وقد وجه إلي مرة جلالة الملك الحسن الثاني عاهل مراكش دعوة ملحة لزيارتها، ومن عادته أنه يدعو نخبة العلماء من الأقطار الاسلامية في شهر رمضان المبارك لإلقاء الدروس والمحاضرات في القصر الملكي، ويحضرها في عناية بالغة،

(١) كان الدكتور محمد تقي الدين الهلالي رئيس قسم الأدب العربي في دار العلوم ندوة العلماء مدة ثلاث سنوات أو أكثر، وأما شقيقه الأستاذ محمد العربي الهلالي فكان صديق المؤلف ورفيقه في الحل والترحال والتنزه والقنص.

www.abulhasanalinadwi.org

ويحضرها عدد كبير من أبناء البلد، ويعنى بنشر هذه المحاضرات التلفاز والراديو، وتكون له كلمة ختامية في نهاية سلسلة هذه الدروس، تطبع وتنشر في صورة كتاب، ولكني ما تمكنت من الحضور لأن هناك نظاماً رتيباً لشهر رمضان المبارك في وطني «راي بريلي»، أبقى متقيداً به، ويحضره عدد وجيه من خلص الأصدقاء وطلبة دار العلوم ندوة العلماء، وبناءاً على ذلك اعتذرت عن تلبية الدعوة الملكية الكريمة وفاتتني الفرصة السانحة لزيارة المغرب، وكان ذلك تقدير العزيز العليم، فلو حضرت بهذه المناسبة، ما تمكنت من زيارة أرجاء البلد والاحتكاك بمختلف الطبقات، والاجتماع في حرية بنخبة الأفراد وصفوة الاشخاص ولا سيما العلماء ورجال الفكر وقادة التعليم والتربية وزعماء السياسة.

أسباب التيسير لزيارة المغرب:

وقد أتاح الله فرصة لتحقيق هذه الأمنية القديمة، حيث وجهت إلي «جمعية الجامعات الإسلامية» (التي تدعى الآن رابطة الجامعات الاسلامية) دعوة لحضور المؤتمر السنوي للجامعات الاسلامية المزمع عقده في الرباط في نيسان سنة ١٩٧٦م، وقد وصلت هذه الدعوة إلى الهند حين كنت في الحجاز، وهي جمعية جامعة للجامعات الاسلامية وكبار المعاهد والمدارس الإسلامية المنبثة في العالم، أسست منذ أعوام في عاصمة الرباط وفيها مقرها الرئيسي، وقد كانت دورة مجلسها

www.abulhasanalinadwi.org

الاستشاري منذ ثلاثة أعوام في المدينة المنورة، وكنت موجوداً بمناسبة الحضور في المجلس الاستشاري للجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، وقد انتخبت عضواً في الجمعية بصفتي أمين عام ندوة العلماء ولا أزال على عضويتها منذ ذلك الوقت، ولكني لم أسعد بالحضور ولا مرة واحدة في مؤتمرها السنوي، وربما كان من الممكن أن أعتذر عن الحضور في هذه المرة أيضاً لكثرة أشغالي، وطول المسافة وضعف الصحة، لو لم يكن قد اطلع على القصة أمين عام رابطة العالم الاسلامي سابقاً معالي الشيخ صالح القزاز، وقد تلقى دعوة الحضور فعلاً، ولكنه عينني ممثلاً عن الرابطة، فقد كان من المزمع أن تعقد الرابطة مؤتمراً صحفياً في موريتانيا في تلك الأيام، وكان من الضروري أن يحضره، على كل فقد أخطر معالي الشيخ صالح رئيس الجمعية الشيخ محمد الفاسي بأن كاتب هذه السطور سيمثل الرابطة في مؤتمر الجمعية، وقد قام بإتمام جميع الاجراءات فيما يتصل برحلة مرافقي ابن أختي العزيز الاستاذ محمد الرابع الحسني الندوي، فلم تعد لي حجة في عدم الحضور، فقررت الرحلة، ورأيت أن ذلك تيسير إلهي فلا بد أن نستجيب له، وقد علمت فيما بعد أنها كانت فرصة أحسن لزيارة المغرب، وتبادل الآراء، والاجتماع بالرجال، فتتجمع في المغرب زبدة العلماء ورجال الفكر والدعوة في العالم الاسلامي، واستطعت أن أرى في وقت قصير الشيء الكثير، وأتوصل إلي

www.abulhasanalinadwi.org

نتائج هامة، وأحضر حفلات وجلسات موقرة، وأزور كبار الرجال، كل كان يقول: قدمت المغرب في خير أوان وخير مناسبة.

من جدة إلى الدار البيضاء

يوم الاربعاء ٥ مايو ١٩٧٦م:

علمت في مكة المكرمة، يوم الثلاثاء ٤ مايو ١٩٧٦م، بعد صلاة العصر فجأة أنه من المقرر أن أتوجه غداً بعد صلاة الفجر من جدة إلى الدار البيضاء (كاسابلانكا) وكان هذا النبأ مفاجأة بالنسبة إلي، فأوقعني في حرج، فقد كنت أريد أن أتوجه قبل انعقاد المؤتمر الذي يبتدىء من ١١ مايو، بيوم أو يومين، ولكنه بما أنه كانت لي رحلة إلى لندن، فكان من الضروري قانونياً أن أسافر بالطائرة السعودية، فقد أعطى الطيران السعودي تذكرة السفر من جدة إلى لندن ومن لندن إلى بومباي دون زيادة في النول، وقد بذل صديقي الشيخ عبدالرحمن تاجر بومباي مجهوداً كبيراً في هذا الصدد، وقد حضرني العزيزان السيد حسن عسكري طارق والسيد مصباح النبي الحسني في مكة المكرمة، وأخبراني بأن الإجراءات كلها قد تمت في هذا الشأن، ولا بد أن تتوجهوا إلى جدة بعد المغرب، وتغادرونها إلى الدار البيضاء بالطيران السعودي في الساعة السابعة صباحاً، وقد رضينا بذلك على مضض لانه كان

www.abulhasanalinadwi.org

فيه صعوبات، وكـــان من الضروري أن أسافر ذلك اليوم لأن الطائرة السعودية إنما كانت تسافر إلى المغرب يوم الأربعاء وحده، والذي كان مبعث سرور لي في الرحلة بهذه الطائرة لأنها كانت تمر بالضفة الشمالية بتمامها، فكانت محطتها الأولى طرابلس، والثانية تونس، والثالثة الجزائر، والأخيرة الدار البيضاء، وكانت هذه الأمكنة كلها موضع حبي وعنايتي، أحن إلى زيارتها، وكان إلقاء نظرة خاطفة عليها مبعث سرور لي، مما أكد لنا أن هذه الطائرة كانت أجدر بأن أستأثر بها للرحلة، لان الطائرة المغربية (Morocco Airline) كان طريقها لا يثير فيَّ اهتماماً.

توجهنا إلى مطار جدة دون أن نتناول الفطور، لان الوصول إلى المطار قبل إقلاع الطائرة بساعة واحدة ضروري قانونياً. وشيعنا إلى المطار عدد من أعضاء أسرة «نورولي»[1] وبيتها مقري الدائم في جدة، من بينهم الشيخ الحاج محمد نورولي، والأخ العزيز محمد ولي، وعدد من الأصدقاء المخلصين الهنود، وكان ممثل الرابطة موجوداً على المطار ليساعدنا في إتمام الاجراءات اللازمة، وتأخر إقلاع الطائرة ساعتين، وأقلعت في التاسعة والنصف، بدل أن تقلع في ميعادها في الساعة السابعة والنصف.

---

(١) أسرة عبدالغني محمد نورلي هي صاحبة شركة كبيرة تقيم في الحجاز منذ نحو قرن أو أكثر، وأصلها من فتن (نهر والا القديم) في الهند في ولاية كجرات، وقد ظلت محافظة على التقاليد الهندية الطيبة، ومع استفادتها بالإقامة في مركز الإسلام ومهبط الوحي.

www.abulhasanalinadwi.org

في الطائرة السعودية:

وحينما دخلت في الطائرة سرني وجود وفد الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ـ المكون من نائب رئيس الجامعة فضيلة الشيخ عبدالمحسن بن عباد، وأستاذها الشيخ أبي بكر الجزائري ـ في الطائرة، وكان مقعداهما في الدرجة الأولى إزاء مقعدينا، وقد تلقياني بحفاوة.

مع الشيخ محمد الغزالي:

وكان يتصدر مقعدي مباشرة مقعد الكاتب الإسلامي الكبير فضيلة الشيخ محمد الغزالي أحد زعماء الاخوان المسلمين، وعلمنا بعد دقيقة أن خمسين طالباً في كلية الشريعة بمكة المكرمة ـ التابعة لجامعة الملك عبدالعزيز بجدة ـ يسافرون بالطائرة إلى زيارة المغرب على حساب المملكة السعودية، وتحت إشراف الشيخ محمد الغزالي أستاذ الكلية، وقد فرحنا جداً بهذه الزمالة السعيدة التي تشرفنا بها من غير إرادة، قد سعدت في عام ١٩٥١م بزيارة مصر العزيزة ودامت إقامتي بها خمسة أشهر تقريباً، وذلك في الأيام التي استطاع الاخوان المسلمون أن يتنفسوا إلى حد كبير بعد محنة طويلة قاسية، وتعذيب واعتقال وتشريد، وشنق ونفي، وبعدما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وكنت أتوق إلى أن أزور مراكز حركة الإخوان وألتقي بدوائرهم النشيطة ورجالها الأبطال، وكانوا يعرفونني عن طريق كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» الذي

www.abulhasanalinadwi.org

كان قد صدر حديثاً، والذي تلقاه الإخوان في إقبال وحماس، وكانوا يتلقون في كل حفاوة كل ضيف يمسح دمعتهم ويواسي قرحتهم، ويخفف من غلواء الهموم والأحزان التي فتتت كبدهم أو يستنشقون إلى حد ما فيه ريا الحب والحنان، واليقين والايمان، الذي كان يذكر مؤسس حركة الاخوان الامام الشهيد حسن البنا رحمه الله.

وظللت أواظب بهذه المناسبة على أن أقوم بالرحلة كل أيام الجمع إلى ضاحية من ضواحي القاهرة، وإلى محافظة مجاورة، ولا بد أن يرافقنا في هذه الرحلات والجولات الشيخ محمد الغزالي، وإنه كان ممثلاً صادقاً للاخوان، ومن رجالها الأمناء البارزين، يتمتع بشخصية جذابة ساحرة، متزنة جامعة، ولسان عذب ذرب، وخطبة مؤثرة مثيرة، علماً أزهرياً بارزاً وأكبر مؤلف وكاتب ومتحدث باسم الاخوان آنذاك، وكان أكبر منافس في الأوساط الدينية للإلحاد والتجدد والتغريب الذي بدأ يبيض ويفرخ، ويستهزىء بالعقائد والحقائق الاسلامية بعد كبت حركة الاخوان، وقد تعرفت عليه وأعجبت به من خلال دراستي لبعض مؤلفاته وكتاباته في إقامتي بالحجاز سنة ١٩٥٠م، ودوى صوته في البرلمان المصري وصدع بالحق مدوياً مجلجلاً مخاطراً بنفسه في العهد الناصري، حينما كممت الأفواه، وكسرت الأقلام وصار نداء الحق «كلمة حق عند سلطان جائر» وقد التقينا نحن الصديقين الزميلين في مكة

www.abulhasanalinadwi.org

المكرمة بعد ربع قرن كامل، ولكن ما تمكنا من تبادل الحديث في طمأنينة فطلبنا إلى الأخ الذي كان بجواره أن يفسح لي المكان ويمكن الصديقين من التحادث، وظل الشيخ محمد الغزالي يتحدث في إفاضة عن دور المحنة والأيام العصيبة التي مرت على الاخوان، والأيام التي عرضت فيها كرامة العروبة والاسلام وشرفهم للامتهان، وتعطلت الحياة فلا روح ولا حركة، ولا صحو ولا يقظة، وكيف استطاع في هذه الظروف القاسية والملابسات الدقيقة أن يؤدي مسؤولية الداعي العالم المجاهد، ودار الحديث بيننا طويلاً عن الانتفاضة الجديدة للاخوان، ومدى الامكانيات التي يمكن استغلالها في هذا الصدد.

انطباعات في مطار طرابلس:

وقد هبطت الطائرة على مطار طرابلس الغرب بعد أربع ساعات متواليات، ولكن لم يسمح للمسافرين بالنزول، وظللنا نلقي نظرة خاطفة ملؤها التلهف والتطلع على عاصمة المجاهدين السنوسيين التي أريقت على أرضها دماؤهم الزكية بسخاء، فسقتها سقياً كريماً، فأنبتت الاستقلال، ولكن الحديث عنهم اليوم في هذه الأرض قد يعرض المرء للخطر، أولئك الذين نال البلد وأهله شرفهم السليب وعزهم الفقيد بفضل دمهم الفائر وإيمانهم الثائر، ودموعهم الغزار التي سكبوها في خلوات الليالي، والهجيع الأخير الذي يغط فيه

www.abulhasanalinadwi.org

المرء غطيط البكر.. إي والله قد شذ نظير هذا النكران للجميل.

وقد جاءت محطة تونس بعد ساعة واحدة، وسمح للمسافرين بالنزول، وكان الماء موفراً في المطار ولكن لم يكن هناك إمكان التطهر به والاستفادة منه على طريقة إسلامية، فقد كانت الحمامات كالحمامات الغربية تماماً، ولكن سرنا تخصيص حجرة للصلاة باسم «بيت الصلاة» صلينا فيها الظهر، وتعرفنا هناك ببعض الطلاب الهنود الذين يتعلمون في كلية الشريعة في جامعة الملك عبدالعزيز بمكة.

ووصلت الطائرة بعد نحو ساعة إلى الجزائر، ولم يكن الخروج من الطائرة مسموحاً به ههنا أيضاً، لأن العلاقة بين المغرب والجزائر قد توترت بعد «المسيرة الخضراء» وما تراءى لنا من داخل الطائرة، كان يدل على سعة المدينة وحسن تنظيمها، وخصوبة هذه البلاد، وقد وجدنا ههنا فرقاً كبيراً في الوقت.

في الدار البيضاء:

وأخيراً بدأت الطائرة تهبط على مطار الدار البيضاء (كاسابلانكا)، وبدأ القلب يشعر بمزيج غريب من الفرح والهم، فكان فرحاً قلقاً في وقت واحد، وبدأنا نفكر فيما عسى أن نصنعه إذا كانت البرقية التي أرسلناها إلى أمين جمعية الجامعات، لم تصل بعد، فلا نعرف المسافة بين الرباط ـ التي

www.abulhasanalinadwi.org

ينعقد فيها المؤتمر ـ وبين الدار البيضاء، وأين نقضي الأيام الخمسة قبل المؤتمر؟ على كل هبطت الطائرة، ونزلنا، فما وجدنا أحداً يتلقانا، وكانت الرحلة الأولى في بلد لا نعرف أحداً فيه، فكنا واقفين على المطار في وضع ملؤه التردد والتفكير.

إن المدينة التي نزلناها هي مدينة المسلمين والعرب الذين يضرب بهم المثل في الحفاوة وحسن الوفادة والقرى، فكنا واقفين في الوضع المقلق الذي وصفناه، إذ تقدم أشخاص إلى الشيخ عبدالمحسن والاستاذ أبي بكر الجزائري، وتلقوهما في حفاوة بالغة كعادتهم وعلمنا انهم أعضاء «جماعة الدعوة إلى الله»، قد اطلعوا على وصولهما بهذه الطائرة بالبرقية، وقد تقدم إلينا أناس أيضاً، ولما اطلعوا على اسمي قالوا: إن لهم معرفة سابقة بي عن طريق كتبي ومؤلفاتي، وكانوا قد حضروا بسيارة للشيخ عبدالمحسن والاستاذ أبي بكر الجزائري، وهنالك أخذ الشيخ عبدالمحسن بيدي ويد مرافقي العزيز الاستاذ محمد الرابع وقال: «لا بد أن تكونوا معنا».

وغادرت السيارة المطار وتوجهنا إلى الدار البيضاء التي كانت على مسافة نحو ٢٠ ميلا من المطار، ووصلنا إلى الدار البيضاء، فعلمنا أن مضيفنا هو الاستاذ محمد الحريزي الوراق أحد أثرياء المدينة، وصاحب عقار وممتلكات، ووقفت السيارة أمام قصر شامخ يضارع البلاط الملكي، وتقاطر هناك أعضاء

www.abulhasanalinadwi.org

جماعة الدعوة إلى الله في عدد وفير، مما علمنا أن الدعوة السلفية قد اتسع نطاقها ولقيت استجابة كبيرة، وكان المتوافدون كلهم يرحبون بالضيوف ترحيباً حاراً، تتهلل وجوههم، ويقولون: «مرحباً بكم، لا بأس عليكم».

وقد غمرنا الفرح والعجب حينما دخل علينا بعد ساعة فجأة أستاذنا العلامة الدكتور تقي الدين الهلالي، الذي حضر للقاء هؤلاء الضيوف ـ الذي علم بقدومهم ـ من وطنه «مكناس» التي تقع على مسافة ١٠٠ ميل من الدار البيضاء، وليس بصعب تقدير الفرح الغامر الذين حصل للتلميذ والاستاذ إذ جمع الله بينهما على غير ميعاد، وبدون إرادة ودام الحديث طويلاً حول مد الدعوة الاسلامية وما يواكبها من عوائق ومشكلات، وحول مواضيع علمية وثقافية ودينية، ثم صلينا العشاء وتناولنا العشاء، ورغم أن القصر كان موفور السعة والراحة للضيوف، ولكن الشيخ عبدالمحسن بن عباد ألح على أن يكون نزولنا نحن الضيوف الأربعة في فندق، فخرج بنا المضيف إلى فندق، وكانت في الدار البيضاء ثلاثة فنادق كبيرة على الترتيب الاتي: «الدار البيضاء»، «مرحباً»، «المنصور»، وتوجهنا أولاً إلى «المنصور» فقالوا، عامر عامر، يعني مشغول مملوء، وما وجدنا هذا التعبير عن هذا الغرض في مكان، وتستخدم الأقطار العربية الاخرى مكانها كلمة «مليان» ولكن كلمة «عامر» أبلغ منها وأوفى بالمعنى،

www.abulhasanalinadwi.org

وأقرب إلى العربية الصميمة الأصيلة، الأمر الذي أكد رأيي الذي اراه منذ قديم أن القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة العربية إلى أقطار أخرى فتحها الاسلام، لا تزال تحتفظ بالكلمات والتعبيرات العربية الأصيلة التي حملتها من نبعتها ولم يمسها حدثان الدهر بتغير ما على مضي القرون، وعلى ذلك فان تراث العربية منثور في البلاد والأقطار العربية، ولكنه مصون محفوظ غير مخدوش أو منقوص، وهاك التعبير عن شيء يستحسنه المرء، فإن أهل العراق يقولون: «زين»، وأهل الشام يقولون: «مليح» وأهل مصر يقولون: «كويس»، وهو تصغير «كيس»، وأهل الحجاز يقولون: «طيب»، وعلمنا فيما بعد أن المغاربة يقولون: «خاوي» إذا أرادوا التعبير عن «الخالي» والبلاد العربية الأخرى تقول «خالي» أو «فاضي».

وتوجهنا بعد «المنصور» إلى فندق «مرحبا» ولكنه لم يرحب بنا، وعلمنا أنه عامر كذلك، وأخيراً قصدنا «الدار البيضاء» لنجرب الحظ، ففسح لنا ذراعه، ومد لنا باعه، والفندق يشتمل على ثلاثة مائة حجرة، ولا يقل عن أكبر فندق في أوربا سعة وحسن إدارة.

زيارة الدار البيضاء والتجوال فيها
وكلمة موجزة عما رأيناه فيها:

يوم الخميس ٦ مايو:

قضينا الليلة في راحة وهدوء، كان الجو لطيفاً، بارداً إلى

www.abulhasanalinadwi.org

حد ما، ووجدنا في مستهل مايو البرودة التي نشعر بها في بلادنا في أواسط نوفمبر، والطقس معتدل لأن المدينة تقع على شاطىء البحر، وأخبرنا موظف في الفندق مثقف أن «كاسابلانكا» كلمة إسبانية، معناها «الدار البيضاء» وسبب إطلاق هذا الاسم على المدينة أنه كانت هناك على هذا الساحل من المحيط الاطلانتيكي بيوت من مدر أو أكواخ كانت تطلى بالنورة البيضاء، وذلك حين كان الملاحون البرتغاليون يقومون بالملاحة والتجارة على الساحل، وكانوا يقولون: سنستجم عندما نصل «كاسابلانكا» ونتناول الطعام، ومن هناك أطلق هذا الاسم على هذه المدينة.

وأعترف أن معلوماتي عن هذه المدينة العظيمة في المغرب ـ التي هي إحدى المدينتين الكبيرتين في قارة إفريقيا، ولا تفوقها إلا «القاهرة» والتي تدعى «العاصمة التجارية» و «العاصمة المالية» ـ كانت قليلة جداً لا تغني غناء وما كنت أدري أنها في هذه الدرجة من السعة والعظمة وكثرة العمران وكثرة السكان، وقد أحاطنا مضيفنا علماً بالأمس أن نسبة سكانها تتراوح بين أربعة ملايين وستة ملايين، وقرأت في مذكرة سجلت في ١٩٣٢م أن عدد سكانها لم يكن أكثر من مائتي ألف، وتلك هي المدينة الشقية التي تسببت في استعباد فرنسا للمغرب كله، فقد أسند إنشاء ميناء «الدار البيضاء» في ١٩٠٧م إلى شركة فرنسية على المقاولة، ووقع خصام عنيف

www.abulhasanalinadwi.org

شديد في ٣٠ يوليو بين العمال الفرنسيين والعمال العرب، وذلك من أجل إهانة ضريح لشيخ من الشيوخ، فثار العمال العرب، ولقي ٦ أو ٧ أوربيين مصرعهم، واستغلت فرنسا هذا الحادث لاستعباد هذا البلد الخصب المغل، وحولوا «الرباط» خراباً يباباً، وتغلبوا على ولايات عديدة إلى أن طُردوا في ١٩٥٥م من أرجاء المغرب كلياً، واعتلى عرش الحكم السلطان محمد الخامس.

وتعرفنا بالأمس على مائدة العشاء بتلميذ يحفظ صحيح مسلم متناً وسنداً اسمه السيد عبدالحميد واتفقنا معه، على أنه سيزورنا اليوم في الفندق، ويكون دليلاً لنا عند زيارة الآثار التاريخية والأمكنة الجديرة بالزيارة في المدينة، وقد حضر الفندق، ولكنه لم يتوصل إلينا، فظللنا متعطلين إلى الظهر، وأخيرا حضر مضيفنا بالأمس الاستاذ محمد الحريزي الوراق، وتوجه بنا إلى منزل الشيخ الحاج مصطفى بن هاشم الذي كان من المقرر أن نتغدى عنده، وطال المجلس بعد الغداء، ورجعنا متأخرين.

وخرجنا بعد العصر لنتجول في المدينة، فوجدناها نهاية في الجمال والظرف وطراز البناء، واسعة جديدة البناء، تقارب جنيف إحدى مدن «سويسرا»، وزرنا مكتبات عديدة تجدر بالذكر منها «مكتبة الرشاد» و «مكتبة الثقافة» واستطلعنا عن وجود بعض مؤلفاتنا، فقالوا: إنها موجودة فيها، وصلينا المغرب في

www.abulhasanalinadwi.org

الجامع المحمدي وبعد الصلاة ألقى الاستاذ أبو بكر الجزائري درسه، والتقى بنا جماعة من الشباب وقالوا: كيف الشيخ أبو الحسن الندوي؟، فقلت: من أين تعرفونه؟ قالوا بكتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، فقلت إنكم تتحدثون الآن مع مؤلف الكتاب، وشف حديثهم عن قلقهم، وتألمهم في ما يتصل بالدعاة الاسلاميين، والحوادث الأخيرة.

وتعشينا عند صديق عربي آخر الاستاذ عمر محسن بن محمد، وأهدى إلي أحد الاخوان من سكان المدينة وتجارها الكبار نسختين من كتابي «مذكرات سائح في الشرق العربي» اشتراهما من بعض المكتبات، وكتب في كلمات الإهداء إن الكتاب يهدى إلى مؤلفه.

أداء صلاة الجمعة في مكناس ٧ مايو:

تقرر في الليل أننا نتوجه بعد الفطور صباحاً إلى «مكناس» ـ المدينة التاريخية القديمة، وإحدى المراكز الروحية ـ وقد ارتحل إليها أستاذنا الدكتور تقي الدين الهلالي بالأمس نهاراً، وسنصلي الجمعة اليوم خلفه.

ولكن لم نتمكن من الرحلة في الساعة السابعة صباحاً من أجل بعض الرفقة واستأنفنا السفر في الساعة العاشرة، وخرجت سيارتنا من الدار البيضاء، فاستقبلنا مناظر بهيجة فاتنة، وأودية خضراء تمثل الجمال الساحر، وقد يخيل إلينا ونحن نمر بها كأننا في كشمير.

www.abulhasanalinadwi.org

وبعد قليل وصلنا «الرباط» العاصمة الحالية للمغرب، تلك التي كان من المزمع قدومنا إليها بعد ثلاثة أيام، للحضور في المؤتمر، وبما أننا تأخرنا في بدء الرحلة وصلنا إلى مكناس وقد حان وقت الجمعة، فلم نستطع أن نصل إلى المسجد الذي يؤم الجمعة فيه فضيلة الشيخ الدكتور تقي الدين الهلالي، فصلينا الجمعة في جامع إيران، أكبر مسجد في المدينة، وكان موضوع خطبة الخطيب الآية الكريمة «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا»، مما علمنا أنه عالم حريص على اتباع السنة يرغب في الإصلاح، وبعد الصلاة صلوا على النبي صلى الله عليه وسلم صلاة جماعة، ودعوا دعوة جماعية، وتغدينا في منزل الحاج مصطفى بن سعيد، في مأدبة أقامتها «جماعة الدعوة إلى الله»، وكانت إقامتنا في فندق «الريف» وتعشينا في نفس المنزل وبعد تناول العشاء أشار إلي أستاذي الدكتور تقي الدين الهلالي أن أتحدث إلى الإخوة الحاضرين وأن يكون الموضوع هو التوحيد، فتحدثت حول مكانة النبوة، وحاجة البشرية إليها في الهداية، وأن معرفة الله معرفة صحيحة منوطة بتعاليم النبوة على صاحبها الصلاة والسلام.

وتأسفنا على أننا لم نتمكن من قلة الوقت والارتباط بالرفقة أن نزور الأمكنة والآثار ذات القيمة التاريخية وأضرحة العلماء والمشايخ.

www.abulhasanalinadwi.org

مدينة فاس التاريخية، يوم السبت ٨ مايو:

ومضينا في الصباح إلى مدينة «فاس»، وكانت الطريق إليها جميلة خضراء، وهي إحدى المدينتين الكبيرتين في المغرب، ومن أهم مراكز العلم والدين والتربية الروحية فيها، ومكانتها في المغرب بالقياس إلى مركزها العلمي والثقافي وكثرة إنجاب الرجال والنوابغ وأئمة الفنون، هي مكانة دلهي، ولكهنئو، ولاهو، وملتان، في شبه القارة الهندية، وقد وضع الحجر الأساسي لهذه المدينة يد سعيدة في وقت سعيد، فقد أسسها سيدي إدريس الحسني الثاني فرع النبغة النبوية الكريمة ـ في شهر ربيع الأول ١٩٢ هـ وخطط دائرة بفأسه ودعا متضرعاً إلى ربه فقال «اللهم اجعلها دار علم وفقه يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها».

وقد تقبل الله دعاءه بقبول حسن، فلا تزال المدينة منذ نحو ١٢ قرناً منبع العلوم والفنون، وتزدان بجامعة القرويين، أقدم وأعرق جامعة في العالم الاسلامي، لم تتوقف فيها قط الدراسة والتعليم منذ أن أسست عبر تاريخها الطويل، مهما اختل نظام الحكم، وعمت الفوضى في البلد، وتخرج منها أفاضل العلماء في المغرب، ودرسوا فيها وظلت مركز الحديث والفقه والتفسير وعلم التوحيد قروناً طوالاً، وقد أهدت إلينا وزارة المعارف لدى إقامتنا بالرباط كتاباً قيماً في مجلدات باسم «جامعة

www.abulhasanalinadwi.org

القرويين»، يتحدث في تفصيل عن تاريخها، وعن المتخرجين فيها، وعن أحوالها في كل دور من أدوارها، ولا يمكن في هذه العجالة إلقاء الضوء الكافي على خدماتها العلمية والدينية والفكرية، وعلى الدور القيم الذي قامت به في حياة المغاربة الدينية والعلمية والروحانية والأخلاقية والسياسية، وقد أدى متخرجوها ـ كالمعاهد والمدارس الاسلامية الكبرى في الهند ـ دوراً بطولياً في تحرير البلد من الاستعمار الاجنبي الجاثم على صدره، وفيما يتعلق بمكافحة الفتن المعاصرة، وكان أبناؤها البررة فعلاً طلائع كفاح التحرير، وهم الذين أثاروا النخوة العربية، والغيرة الاسلامية، والحمية الدينية وروح الجهاد في سبيل الله، وقد لا يوجد في البلد قائد سياسي أو رجل إسلامي، أو مجاهد ديني، لم يعب من منهلها العلمي الفياض بطريق مباشر أو غير مباشر.

وفي سنة ١٩٣٠م حينما حاول الفرنسيون أن يوقعوا العداوة والبغضاء بين البربر ـ الذين هم سكان هذه المناطق الاصليون ـ وبين العرب، وأن يفصلوا أولئك عن هؤلاء، وعملوا على إثارة شعور القومية في البربر، والرغبة في احتضان الحضارة الجاهلية وإحياء الأعراف والتقاليد، وقوانين الغابات البربرية التي عاشوها فيما قبل دخولهم في حظيرة الاسلام، واستبدال اللغة البربرية القديمةباللغة العربية، وجعلها لغة الخطابة والكتابة، والتأليف والتصنيف، والمكاتبة والمراسلة، واختراع خط جديد لذلك، وكان ذلك تكتيكاً خبيثاً، واستراتيجية ماكرة،

www.abulhasanalinadwi.org

لفصلهم عن الاسلام والعرب، كانت تستطيع أن تجذبهم جذب المغناطيس للقطع الحديدية، وتؤثر فيهم تأثير السحر، وقد نجح الفرنسيون في تنفيذ «الظهير البربري»[1] بجيل من بعض أفراد الحكومة المقربين إليها، والمقدمين لها القرابين، فكان ذلك فتنة عمياء، ربما لا يوجد نظيرها في تاريخ الاستعمار الغربي، وكانت محنة قاسية دقيقة لغيرة العرب والبربر، وذكائهم، يتوقف عليها مصير الاسلام في هذه البلاد، وتلك هي قصة أواخر أيام تحصيلي وكنت قد بلغت الرشد، ولا أزال أتذكر أن الصحف والمجلات العربية التي كانت تعبر تعبيراً صادقاً ـ وكانت في طليعتها مجلة «الفتح» المصرية ـ عن عواطف المسلمين، كانت زاخرة بالمقالات التي تتعلق بالقضية، والتي كانت تحذر من مغبة هذه المكيدة الماكرة المشئومة لو نجحت، وهنالك أيضاً قامت جامعة القرويين بالتوجيه المطلوب وأنارت الطريق أمام الشعب، وأوصت الأمة كلها أن تداوم على قراءة الورد الآتي في جميع المساجد والمدارس:

«يا لطيف! ألطف بنا فيما جرت به المقادر، ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر».

ولم يمض إلا قليل حتى صار الورد على ألسنة الشعب، ودوت البلاد بالتضرع والابتهال إلى الله، وبطل سحر السامري الذي أرادت فرنسا، أن تستخدمه، وصان الله البربر من أن يقعوا

---

(١) يستخدم المغاربة للمرسوم الملكي كلمة «الظهير».

www.abulhasanalinadwi.org

فريسة في هذه الحبالة «اللبقة»، ولم يقع هناك أي تحول في وفائهم وولائهم للاسلام ولحضارته، وافتضحت المكيدة التي نسجتها يد فرنسا الآثمة.

وكانت «مراكش» و «فاس» عاصمة الدولة مرة بعد أخرى، ولئن كانت فاس لم تعد الآن عاصمة الحكم والسياسة ولكنها لا تزال عاصمة العلم والدين والثقافة، ولا يزال ضريح مؤسسها سيدي إدريس الثاني في أرضها، الذي يعرف بزاوية مولاي إدريس[1]، كما أنها تمتاز بوجود قبور كثير من العلماء وعباد الله والمشايخ، أمثال سيدي عبدالعزيز الدباغ والشيخ عبدالقادر الفاسي.

وذهبنا تواً إلى قصر الحاج مصطفى بن هاشم الذي يقع في مكان ذي منظر رائع خارج المدينة، وكان الشيخ تقي الدين الهلالي نزيلاً هناك، فجلسنا إليه طويلاً، وتجددت ذكريات لكهنئو وتحدثنا عن أيام إقامته بها وتدريسه في دار العلوم ندوة العلماء، وبعدما أخذنا حظنا من الاستجمام خرجنا لزيارة جامعة القرويين الجديدة، وقد أقيمت جامعة جديدة تحمل إسم «جامعة القرويين»، أما جامعة القرويين القديمة فتحولت إلى أثر تاريخي يصلي فيها الناس ويزورونها، ويشابه بناء الجامعة الذي لم يتم بعد ثكنة القوات.

وبدأنا بكلية الآداب، وقابلنا الاستاذ الدكتور عبدالسلام

---

(١) يدعو المغاربة السادات الحسنية بـ «مولاي».

www.abulhasanalinadwi.org

الهراس، أستاذ الكلية الفاضل، والأديب الاسلامي المشغوف بالدراسة، وكان كتابي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» هو سبب تعرفه بي، ذلك الذي كان قد قرأه عقب صدوره لأول مرة وكان يقول: «أنني لا أعتبر من لم يقرأ هذا الكتاب مثقفاً».

وتحمل كلية الآداب في جامعات اليوم مكانة التوجيه الفكري كقسم الفلسفة في الماضي أو العلم في أوائل القرن العشرين، وتتوقف تربية الشباب الذكي، الفكرية والخلقية على اتجاهها الصحيح أو المحرف، وعلى أساتذتها وإسلاميتهم، أو تحررهم الفكري وشذوذهم العقلي، أو تحاملهم على الاسلام، وهناك تزداد أهمية وجود الأساتذة أولي الفكر المستقيم والعقل السليم، فسرَّنا جداً أن يكون مثل الدكتور عبدالسلام الهراس ـ الذي يمتاز بالدعوة المتحمسة إلى الأدب الصالح، والقيم والمثل الاسلامية ـ أستاذاً في هذه الكلية، وقد ذهب بنا إلى عميد الكلية الدكتور محمد التازي، وكان الحديث معه على موضوع الأدب ومفهومه وحدوده.

ثم انتقلنا إلى كلية الشريعة، والتقينا بعميدها مولاي عبدالواحد العلوي، وظل يحادثنا طويلاً بلسانه السلسال، والتقينا هناك مع الاستاذ الدكتور صالح الأشتر، وسرَّنا هذا اللقاء المفاجيء معه، فقد سبقت معرفتي واجتماعاتي به في جامعة دمشق حينما زرتها أستاذاً محاضراً على دعوة منها في

www.abulhasanalinadwi.org

١٩٥٦م، وكان من كبار أساتذة الأدب والنحو فيها، وهو يمتاز بنظر عميق وذوق علمي، وهو أديب فاضل ، وجددنا طويلاً ذكريات الأيام الحلوة في دمشق، تلك التي كانت حقاً من أسعد أيام حياتي وأجملها .

وتوجهنا من هنا إلى جامع القرويين، الذي يقع في المناطق القديمة للمدينة التي لا تزال تمثل المدينة العريقة، وهبت علينا نفحات الانس والحب التي افتقدناها في المدينة الجديدة، كانت السكك الضيقة مفروشة بالأحجار، ونزلت الأمطار، فكنا نتحفظ في المشي، وكنا نتصور كأننا نمر بأحياء قديمة في لكهنئو أو حيدر آباد. فهذه سوق الصباغين، وتلك سوق النحاسين، والحمار هو الوسيلة الوحيدة للمواصلات في أغلب الأحيان، وهو يصعد السلم متماسك الخطو، ورأينا رجلاً من المشغوفين بالنفث في العقد والسحر مشغولاً بكتابة التمائم والحجب .

وزرنا مكتبة القرويين التي تشتمل على ثلاثين ألف كتاب مطبوع، وستة آلاف كتاب مخطوط، ولم يكن لنوفي المكتبة حقها من الزيارة في هذا الوقت القصير، لأن ذلك يحتاج إلى أسابيع، ولكننا قلنا في أنفسنا: ما لا يدرك جله لا يترك كله، فنهضنا لنلقي نظرة ـ تحت إشراف مدير المكتبة ابن عم زعيم المغرب وصديقنا الفاضل المرحوم الاستاذ علال الفاسي، ألا وهو الشيخ محمد سعيد ـ على ما تشتمل عليه من مخطوطات

www.abulhasanalinadwi.org

ونوادر الكتب، كان كل مؤلف مغربي يتمنى أن يتشرف كتابه بالدخول في هذه المكتبة العظيمة التي كانت موضع اهتمام العلماء المغاربة ومهبط أنظارهم.

وكان من الكتب التي استطعنا أن نلقي عليها نظرة خاطفة شرح موطأ الامام مالك في مجلدين، مكتوباً في الرق وهو من نوادر المخطوطات، وهو من مؤلفات الجزولي ورأينا نسخة مخطوطة لكتاب ساعد البغدادي «الفصوص في اللغة» انتسخت في أواخر القرن العاشر، ولا يوجد للكتاب إلا نسختان في المغرب كله، ورأينا نسخة خطية لكتاب الهروي «كتاب الغريبين» الذي يشتمل على غريب القرآن، وغريب الحديث، انتسخت في القرن الثامن، ورأينا نسخة للقرآن الكريم بخط والدة سلطان المغرب يعقوب المريني، في كل جزء منها جزءان، كتب في القرن الثامن، ورأينا كتاب ابن الغروم المرادي «تنبيه الأنام» والتزم خطاطه أن يكتب «الله» و «محمد» في كل مكان بماء الذهب، ومن أقدم المخطوطات نسخة للمدونة للقرن الخامس، والترجمة العربية لكتاب الخيل للقرن السادس، ومن الكتب التي كانت بخط مؤلفيها، منظومة في فن الطب لابن طفيل مؤلف رسالة «حي بن يقظان» ونسخة لمقدمة ابن خلدون عليها تعليق بخط ابن خلدون، وبها زيادات على النسخة المتداولة بأيدي الناس، ورأينا نسخة خطية لسيرة ابن اسحاق، على حين شاع في الناس أنه لا توجد لها نسخة في العالم، ومما

www.abulhasanalinadwi.org

يجدر بالذكر بالقياس إلى الغرابة والظرافة هو نسخة كتاب «البيان والتحصيل» في الفقه المالكي من مؤلفات جد ابن رشد، تشتمل على ٣٧٠ صفحة، وكل صفحة مكتوبة على رق واحد نزع من عضد الغزال، وعلى ذلك فاستهلكت الكتابة ٣٧٠ غزالاً، وقال لي مرافق أن غابات كثيرة أصبحت مقفرة من الغزال، وذلك إن دل على شيء فإنما يدل على شغف العلماء السلف بالعلم، وتقديرهم له تقديراً مستوفى.

وخرجنا من المكتبة والقلب مأخوذ بهذا التراث العلمي النادر، ثم أخذنا الطريق إلى جامع القرويين، وتجولنا في رواق المسجد الداخلي وفي فنائه الذي قد دوى في جنباته حيناً من الدهر صوت «قال الله و قال الرسول» وظل ائمة العلوم وعلماء الفنون يعمرون رحابه بالدراسة والتدريس والبحث والتحقيق، وقد رأيناها يخيم عليها الصمت والهدوء، وصدق عنها ما قاله الشاعر الاردي في البيتين الآتيين:

«حيثما كانت الحديقة تتزين بالأزهار والرياحين تعمر جنباتها ألوف من العندليب بنشيدها العذب وتغريدها الحلو، وصحا النرجس يوماً فلم ير شيئاً سوى الأشواك، وعاد البستاني المسكين يقلب كفيه ويقول باكياً: كانت هناك أزهار لم تتفتح، وكانت ههنا أزهار مفتحة فائحة».

وصعدنا العلالي ورأينا مزولة (الساعة الشمسية)، والعجيب

www.abulhasanalinadwi.org

أن بالمسجد انحرافاً عن القبلة وأبقاه الناس حتى الآن على ما كان عليه.

ورجعنا بقلب متحسر على ما رأيناه إلى مضيفنا الحاج مصطفى الفلالي، وتغدينا، وكان نزولنا في فندق (Holiday Inn) فقصدناه، واسترحنا، وحضرنا بعد المغرب حفلة الشاي في منزل الدكتور الهراس، ولقينا هناك الاستاذ شاهد بوشيخي أستاذ في كلية الآداب، ووجدناه رجلاً فاضلاً وشاباً وقوراً، كان معجباً بحركة الدعوة والتبليغ التي أسسها الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي والتي مقرها في دهلي «الهند» وقد ساهم في بعض جولاتها ورحلاتها، من أولي الفكر الصحيح، وتعشينا عند الحاج مصطفى في منزله ورجعنا إلى الفندق.

زيارة «افران»، ٩ مايو الأحد:

وتناولنا الفطور عند الدكتور الهراس، وتفضل هناك مولاي مصطفى العلوي عميد «دار الحديث الحسنية» بالرباط، وعضو المجلس الأعلى للجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، الذي نتشرف منذ أعوام بلقائة بالمدينة المنورة مرة أو مرتين في العام بمناسبة الحضور في دورات المجلس، فتلقانا بحب وإكرام، ودعانا إلى زيارة «افران» التي تحل محل كشمير في المغرب، وانطلقنا في الساعة التاسعة والنصف وعرجنا على منزل رئيس مجلس العلماء ومنه توجهنا إلى «افران».

www.abulhasanalinadwi.org

وكانت الطريق كلها جميلة ذات مناظر طبيعية فاتنة، ووصلنا ظهراً إلى فندق كان غاية في الأناقة والظرافة والتنسيق، وانتظرنا هناك الطلاب الذين رافقونا من جدة، وكان من المقرر أن يتغدوا في الفندق، بعد زيارة الأمكنة الجديرة بالزيارة، وقد وصلوا بعد ما صلينا الظهر، وكانت جلستي بجنب الشيخ محمد الغزالي، فتمتعت بلذيذ الطعام وجميل الكلام في وقت واحد، وتليت علينا أبيات مختارة لشعراء مطبوعين وساهم في ذلك الشيخ محمد الغزالي مساهمة كبيرة، وتوجهنا بعد الغداء إلى الرباط، ووصلناها قبل المغرب بنصف ساعة، ونزلنا في فندق « هلتون ».

في الرباط عاصمة المغرب

١٠ مايو يوم الاثنين

وكان اليوم أول يوم من أيام إقامتنا بالعاصمة « رباط الفتح » وقد وضع الحجر الأساسي للمدينة في مناسبة سعيدة جداً، حين كان جد المسلمين صاعداً، وكان النجاح حليفهم في كل عمل يقبلون عليه، والانتصار قرينهم في كل معركة يخوضونها، أعني بعد الانتصار الرائع في معركة الزلاقة ١٥ رجب ٤٧٩ هـ، التي هزم فيها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين المسيحيين هزيمة نكراء، أولئك الذين كانوا يغيرون من حين لآخر على الحكومات الاسلامية

www.abulhasanalinadwi.org

العربية، في «إشبيلية» و«قرطبة» وضرب الحكم الاسلامي بجرانه في الأندلس، فكان مرهوب الجانب نحو قرن كامل، ولكن في نفس الوقت ازداد نفوذ الحكومة المسيحية في «طليطلة» (Toladdo) التي نصبت نفسها لإقصاء المسلمين من أرض الأندلس، هذا في جانب، وفي جانب آخر ضعف في المسلمين الوعي السياسي، وعمتهم روح الشقاق والافتراق، التي هي داؤهم المتوارث، فناموا عن مطامع الأعداء، ولم يحسبوا حساباً لأعدائهم وعزائمهم، وما كانوا يبيتون لهم في الظلام، وكل ذلك وضع البقية الباقية من النفوذ الاسلامي والسلطة الاسلامية المنهارة في موقف الصراع بين الحياة والممات، ولم يكن هناك من يقف بجانبهم في هذه الساعات الرهيبة العصيبة إلا الحكومات الإسلامية المغربية الفتية المليئة بالطموح التي أنقذتها فعلاً مرات عديدة من مخالب الموت الزؤام، وقد منوا بمثل هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة القاصمة أواخر القرن السادس المسيحي، حين حاول حاكم طليطلة المسيحي «الفونس» أن يطفىء نور الحكومة الاسلامية للأبد، وكانت في إفريقيا الشمالية آنذاك حكومة الموحدين القوية التي كان داعيها الأول محمد بن تومرت ومؤسسها عبدالمؤمن بن علي (٥٥٨ هـ) الذي كان بربري الأصل والذي كان نافذ الكلمة لا يعصى له أمر فيما بين «برقة» و«طرابلس» إلى «طنجة» و«تطوان» أعني إلى ساحل المحيط الأطلنطي، وفي هذه المناطق الواسعة لا

www.abulhasanalinadwi.org

يخطب الخطيب في الجمعة إلا بأسماء خلفائهم.

وكان يعتلي عرش الحكم آنذاك حفيد عبدالمؤمن أبو يوسف يعقوب المنصور (٥٥٤ ـ ٥٩٥ هـ) الذي كان يعاصر شهاب الدين الغوري ملك الهند في ذلك العهد وتجرأ «الفونس» الحاكم المسيحي كثيراً حتى وجه إلى يعقوب رسالة بالعربية يهدده بالزحف إليه، وغزوه في عقر داره، وكتب يتندر به: «إنك إذا لم تبادر بالحضور إلينا مجتازاً هذا البحر، فإني سأحضر لديك «إكراماً» لك، فما كان من هذا الرجل المؤمن الغيور ـ حفيد عبدالمؤمن ـ إلا أن كتب على الجانب الآخر من الرسالة رداً عليها الآية الكريمة التي كتبها سيدنا سليمان بن داود عليه السلام إلى ملكة سبأ رداً على رسالتها: «ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون» وأعقبها بهذه الكلمات «الجواب ما ترى، لا ما تسمع»، نفس الجملة التي قالها الخليفة العباسي المعتصم بالله رداً على كتاب السلطان البيزنطي.

على كل فإنه أمر بجنوده الاسلامية أن تتجمع، وتوجه بها في ٥٩٠ هـ الى الأندلس، وكانت المجابهة في شعبان ٥٩١ هـ بين الجنود الاسلامية والجنود المسيحية في ميدان مرج الحديد (هسبانيا) وهزم يعقوب المنصور الفونس هزيمة عادت مضرب المثل في إسبانيا إلى سنوات طويلة وتماثل هذه المعركة،

www.abulhasanalinadwi.org

المعركة الأخيرة في ميدان باني بت بالهند بين المسلمين والمرهنة.

ورجع السلطان يعقوب بأربعين ألفاً من الأسرى وبمائة ألف من البغال وثمانين ألفاً من الأفراس، وأربعمائة ألف من الحمير، وستين ألفاً من الدروع، وخمسين ألفاً من الخيام، وأسس مدينة شكراً لله باسم «رباط الفتح» تذكاراً لهذا الفتح المبين وهي بجنب «سلا» المدينة التاريخية المباركة، وإنما أسسها السلطان الطموح بهذا الموطن، وفي جانب القبلة من «بحر سلا» لكونه يحمل أهمية استراتيجية تماماً كتخطيط مدينة الاسكندرية بمصر.

وبعد تناول الفطور في الصباح انبعث في قلبي الرغبة الملحة أن أقيم انطباعاتي، في ضوء حاضر هذه البلاد وغابرها، والحديث الأحدث من التجارب التي كانت حصيلة رحلاتي وزياراتي ولقاءاتي وجولاتي الموسعة في هذه البلاد والأقطار الاسلامية، فقد أتيح لي أن أتحدث إلى أبناء كل بلد وطأته قدماي، وعلى ذلك فكانت مقالات و«أسمعيات» أمثال «اسمعي يا مصر» و «اسمعي يا سوريا» و «اسمعي يا زهرة الصحراء (الكويت)» و «اسمعي يا إيران»، وكان ذلك رسالة إلى هذه البلاد وهدية لها.. في وقت واحد، وتلك هي زيارتي الأولى للمغرب التي قدرت لي حين مالت شمس الحياة إلى الغروب، على كل بدأت مقالاً بعنوان «نحن الآن في المغرب»

www.abulhasanalinadwi.org

الذي سيقرأه القراء الكرام في نهاية هذا الكتاب، فسوف تبتدىء منذ الغد نشاطات المؤتمر، ومن يدري، هل أجد فرصة للكتابة أو لا، واستهلكت الكتابة معظم أوقاتي، وكانت خلالها لقاءات مع بعض الإخوة أيضاً، وقد وجدنا مساعدة غالية من الأخ العزيز الاستاذ ظهور الإسلام الندوي، الذي يتطوع بمساهمة موفورة في إعداد المؤتمر.

الساعة الخامسة مساء:

وقدم فندق «هلتون» رئيس جمعية الجامعات الاسلامية الاستاذ محمد الفاسي يرحب بالضيوف، وهو ذو شخصية وقور في البلد، وقد سبق أن شغل منصب عمادة جامعة محمد الخامس ووزارة الثقافة والتعليم الأهلي وهو الآن رئيس «اللجنة الوطنية» بيونسكو ومندوب لجنتها الدولية في المغرب، وبجانب ذلك هو عضو في «مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وهو أستاذ جلالة الملك الحسن الثاني، وقد حضر بهذه المناسبة ممثلو الأقطار الكثيرة، وكان لقاؤنا معهم جميعاً، وكان تبادل الآراء طويلاً في مواضيع أخلاقية وعلمية.

وكان في الساعة السادسة برنامج زيارة «دار الحديث الحسنية» وقد اشترك في ذلك عدد من الضيوف وقد زرنا متجولين مبنى هذه الدار الذي وقفه أحد من المسلمين الغيارى، ومن المؤسف أننا لم نتشرف بهذه المناسبة بلقاء

www.abulhasanalinadwi.org

صديقنا المحترم الاستاذ عمر بهاء الدين الأميري (سفير سوريا السابق بباكستان) والاستاذ في الدار منذ أعوام، فقد كان غائباً عن الرباط، ورجعنا بعد هذه الزيارة إلى الفندق.

وحضر في الساعة السابعة والنصف مساء الاستاذ أبو بكر القادري يقابلني، وتلاقينا في حب وحماس، وأبدى عن علاقته القلبية الوطيدة، وهو من الشخصيات الاسلامية البارزة في المغرب، وعضو اللجنة التنفيذية في حزب الاستقلال الذي أسسه المرحوم الاستاذ علال الفاسي، ورئيس جمعية شباب النهضة الاسلامية، ورئيس تحرير مجلة «الإيمان» وهو ذو عناية كبيرة ـ بعد الاستاذ علال الفاسي ـ بقضايا مسلمي الهند ـ وكان اجتماعي به في ١٩٦٥م في مؤتمر رابطة العالم الاسلامي بمكة المكرمة، وقد عملنا معاً في لجنة، وسررت جداً بلقائه وشعرت بالتجاوب الفكري والانسجام الروحي بيني وبينه.

وأقام لنا الليلة مأدبة عشاء في منزله الدكتور عبدالكريم الخطيب، وهو كذلك من الشخصيات البارزة في المغرب، وهو رغم أنه طبيب، يمتاز بذوق علمي رفيع ويعنى عناية كبيرة بالقضايا الاسلامية والوطنية، وكان وزيراً أيضاً في حكومة سابقة، وهو الآن رئيس حزب سياسي يحمل اسم «الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية» وحضر المأدبة نخبة من الضيوف وزبدة من الرجال، من بينهم الدكتور المهدي بنعبود الذي كان منذ مدة قصيرة سفير المغرب في «واشنطن» ويعتبر من رجال

www.abulhasanalinadwi.org

الفكر الاسلامي الكبار في المغرب، وله نصيب مشكور في نشر الافكار الاسلامية في الطبقة المثقفة، وهو وإن كان طبيباً في الطب البشري، لكنه بجانب ذلك أستاذ علم النفس (سيكولوجيا) في كلية الآداب بالرباط، وكذلك كان من خيرة الضيوف الدكتور رشدي فكار، وهو مصري وأستاذ علم الاجتماع (سوسيولوجيا) في كلية الآداب بالرباط، ومؤلف عدد من كتب الفلسفة في اللغة الفرنسية، وعضو الأكاديمية العلمية في فرنسا، وقد رشح اسمه هذا العام لنيل جائزة نوبل، ومنهم الدكتور صبحي صالح مؤلف كتب عديدة، ومن علماء لبنان الكبار، وكان لقائي الأول معه في منزل الشيخ حسن خالد مفتي جمهورية لبنان بمناسبة جولة وفد رابطة العالم الإسلامي في ١٩٧٣م، وهو الذي ألقى كلمة تقديم وتعريف وترحيب في الحفلة التي عقدت تكريماً للوفد، وكان فيهم الاستاذ أبو بكر القادري المذكور آنفا، وتاجر سوداني كبير، يساهم في الحركات الاسلامية مساهمة فعالة ويقيم في الرباط منذ مدة طويلة.

وكان منزل الدكتور عبدالكريم الخطيب نموذجاً لطراز الفن الأندلسي المعماري والتمدن الأندلسي، فقد رأينا نفس الطريق للتزيين والاستضاءة، والتعاريج والرسوم التي تراها في الصور، والتي رأيناها في قصور وبلاطات الحمراء «غرناطة»، والواقع أن هناك اشتراكاً فيما يتعلق بحضارة الأندلس الاسلامية

www.abulhasanalinadwi.org

وحضارة المغرب الأقصى، لانهما تنبعان من أصل واحد، ووليدتا ذوق التجمل والتأنق المشترك الذي اطرد فيه التبادل والأخذ والرد، وإن أبناء الاسلام من المغرب الأقصى، هم الذين عمروا إسبانيا، ولما سحب المسلمون من إسبانيا ونبت بهم أرضها وسماؤها، فإن المغرب هو الذي رحب بهم وأكرم مثواهم، وطبعاً قد جاؤوا من الأندلس بمدنيتهم وذوقهم، وطريق اجتماعهم وظلوا يحتضنونه قروناً، وعلى ذلك التقى التياران اللذان لم يكن أحدهما غريباً عن الآخر.

وكان حديث المائدة طويل النفس، وتطرق إلى أي مدى تصح الثقة بصحة الحوادث وقصص الاختلافات والمشاجرات النابعة بين الصحابة أيام سيدنا علي وسيدنا عثمان رضي الله عنهما، والاعتماد عليها تاريخياً؟ وقد تحولت إلى حرب أهلية، الأمر الذي يرويه التاريخ في صورة مهيبة قد تجعل المرء ـ الذي لم تتعمق دراسته ولم تتوسع معلوماته ولم يعرف معرفة صحيحة تأثير الصحبة النبوية وقوة التربية النبوية على التحويل والتغيير وقدرة الاسلام على التأثير والقلب ـ يستنتج منها أنهم عادوا تتحكم فيهم الأنانية والأهواء بمقتضى البشرية، ولم يعودوا على المستوى الخلقي الذي وضعهم عليه نبيهم الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن العجيب أن الاستاذ رشدي فكار ـ وهو من المثقفين ثقافة عصرية وأستاذ في علم الاجتماع ـ كان يحارب هذا

www.abulhasanalinadwi.org

التصور الخاطىء في أسلوب قوي، يمده قوة البيان وطلاقة اللسان، وحقيقة الواقع، ويؤكد أن هذه الروايات لا تخلو من المبالغة وتجسيم الوقائع وتهويلها، وأن الصحابة كلهم ظلوا على مستواهم الخلقي الذي تركهم عليه مربيهم الأعظم عند لحوقه بالرفيق الأعلى، وكل ما عاشوه من الحوادث كان رمزاً طبيعياً على الحياة، ولا يخلو من ذلك أي مجتمع إنساني حي ـ إذا لم يكن صناعياً ـ ولذلك كله أسباب منطقية معقولة مقبولة تدل على أن الذي حدث كان ذا نتائج مثمرة إيجابية، ولو وقع الصحابة رضي الله عنهم فريسة الأنانية والأهواء لما بقي على ظهر الأرض مجتمع نقدمه مجتمعاً مثالياً، أما الدكتور صبحي صالح فكان يضغط على أنه لا يمكن غض البصر عن القصص التاريخية، وأن تلك الحوادث كلها كانت وليدة النزوات النفسية التي لا يخلو عنها بشر ولا يجوز لنا أن نعرض التاريخ على غير ما هو عليه، وانتهينا من الطعام ورجعنا إلى الفندق.

افتتاح المؤتمر، وحديثي فيه، وأشغال النهار الأخرى

١١ مايو الثلاثاء:

وفي الساعة العاشرة افتتح المؤتمر، واستهله وزير التعليم العالي (Minister of Higher Education) الاستاذ عبداللطيف بنعبد الجليل بكلمته، التي رحب فيها بالضيوف، وأشاد بالأغراض التي يرمي إليها المؤتمر، وأعقبه رئيس المؤتمر الاستاذ محمد

www.abulhasanalinadwi.org

الفاسي بكلمته القيمة ذات الطابع العلمي، ثم تناوب خمسة ضيوف بكلماتهم على إيماء من الرئيس كان من بينهم كاتب هذه السطور.

وبدأت حديثي قائلاً: إنني أتشرف الآن بتمثيل رابطة العالم الإسلامي، بمكة المكرمة التي يقع على علو من مقرها الرئيسي، غار حراء الذي نزل فيه أول وحي إلهي على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومما يسترعي انتباه العاقل ويدعوه إلى التفكير أن هذا الوحي الإلهي الأول لم يؤكد الحاجة إلى العلم ويشيد بعظمته والإقرار بفضله فحسب، بل إنه لم يغض البصر عن وسيلته الدائمة وخادمه المخلص «القلم»، وقد ربط به مصير العلم فقال عز من قائل: (إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم).

وأضفت قائلاً: إنه لغز من ألغاز التاريخ أن الحركة العلمية الكبرى في العالم الانساني، والحركة التأليفية والكتابية الكبرى في النوع البشري، نبعتا من نبوة نبي أمي! إن ارتباط هذه الحركة العلمية وهذه الخدمة الهائلة للعلم والثقافة ـ التي كانت هذه الأمة حاملة لوائها ـ بهذه الأمية، يثير تساؤلاً تاريخياً يتطلب من عقلاء العالم ورجالات فلسفة التاريخ إجابة مقنعة، وصدق الشاعر الإيراني والحكيم الرباني الشيخ مصلح الدين الشيرازي المعروف بسعدي حينما قال: «إن اليتيم الذي لم يتلقن

www.abulhasanalinadwi.org

مبادىء العلم، استطاع أن ينسخ مكتبات الأديان، وجعلها لا تغني غناء ولا تحمل معنى».

لكن المرء قد يفهم من هذا البيت أن معجزة النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد كانت سلبية، حيث إنه نسخ المكتبات والذخائر العلمية القديمة التي كانت قد تجردت عن رسالتها ودورها الإيجابي، وبدأت تمثل دور التضليل ونشر الأباطيل، لكن الواقع أن هذه المعجزة كانت إيجابية بناءة أكثر من أن تكون سلبية، إنه نسخ ذخيرة كتب محدودة لكنه حبا الإنسانية بمكتبات واسعة زاخرة ينقطع نظيرها في تاريخ الأمم.

ثم قلت: إن الانقلاب الذي أحدثته النبوة المحمدية، على صاحبها الصلاة والسلام، في دنيا العلوم يتجلى في مظهرين كبيرين، إن الجانب الأول من جوانب دورها الانقلابي أنها وحدت بين العلوم الإنسانية المتوزعة في وحدات (Units) كان كل علم وحدة بنفسها، ولم تكن كل وحدة بعيدة عن الأخرى ومجهولة لها، بل كانت متحاربة متصارعة، لا تلتقي على غاية، ولا تتعاون في غرض.

والمظهر الثاني أنها كانت كلها تؤدي إلى نتائج مختلفة، وتفضي إلى غايات متنافية، فكل من الفلسفة، والأدب وعلم الأخلاق وعلوم الرياضة كان يعيش في دنياه منطوياً على نفسه منشغلاً بذاته، مفصولاً عن الآخر، لا يستطيع أن يهدي إلى

www.abulhasanalinadwi.org

فاطر السماوات والأرض وإلى معرفة ذاته وصفاته، ومعرفة الأغراض التي يهدف إليها وجود هذا العالم والكون، والقيمة الحقيقية للحياة الإنسانية، ووحدة الإرادة والقدرة الإلهية القاهرة التي تتحكم في نظام العالم، والاتجاه بالحياة والأخلاق الإنسانية إلى وجهتها الصحيحة، ولكن النبوة المحمدية والتعاليم النبوية استطاعت أن تخرط هذه الوحدات المنتشرة المبعثرة في سلك واحد، وجعلها متعاونة متعاضدة، ووسيلة صحيحة لمعرفة الله وذاته وصفاته، والكون وغاياته، وقد صور القرآن الكريم كل ذلك تصويراً دقيقاً حين قال: (الذين يتفكرون في خلق السمٰوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلاً).

وختمت حديثي قائلاً: «إن هذه المؤسسة التي حضرناها جميعاً بمناسبة انعقاد مؤتمرها السنوي، أسست من أجل تحقيق غرض كبير، إني أرى منذ مدة طويلة أن مصير البلاد الإسلامية وقضية بقاء الأجيال المسلمة اللاحقة على الإسلام، أو انسلاخها عنه، وليس منوطاً بالميدان السياسي، إنما هو منوط بالميدان التعليمي والثقافي، وطبعاً تستطيع الجامعات والمؤسسات ومعاهد التعليم والتربية الاسلامية أن تؤدي في ذلك دوراً مصيرياً حاسماً أكثر من الأحزاب السياسية، ومن هنالك تتأكد أهمية جمعيتنا هذه وتقوم بخدمات غالية تكون غرة في جبين التاريخ».

www.abulhasanalinadwi.org

وبهذه الكلمات انتهت هذه الجلسة الأولى، وابتدأت الجلسة الثانية في الساعة الرابعة مساء،التي انتخب فيها الاستاذ محمد الفاسي رئيساً للمؤتمر، والاستاذ محمد بن البشير أميناً له، والدكتور عبدالله عبدالمحسن التركي رئيس جامعة الإمام محمد ابن سعود الاسلامية بالرياض مقرراً له، وكان هذا الانتخاب موضع استحسان الجميع، ثم ألقى الدكتور عبدالله التركي كلمته التي ضغط فيها على حب الواقعية والأخذ بها وعلى جانب العمل ـ فيما يتصل بالبحث والنقاش والمذاكرة ـ مكان الرأي وعرض الفكرة فحسب، ثم جاء دور تشكيل اللجان، وأسندت إلي مسئولية اللجنة التي شكلت من أجل العمل على ما يتصل بالجامعات الاسلامية وقضايا العالم الاسلامي والربط والتنسيق بينها .

وكان العشاء في «نادي جولف»، وكان هناك إعداد للموسيقى والمعازف، ولكنها أوقفت على تدخل واعتراض من الوفد السعودي، واشترك في المؤتمر مندوب كل من المملكة العربية السعودية، ومصر، ولبنان، والشام، والعراق، والاردن، والكويت، وتونس، وأفغانستان، وتركيا، والاتحاد السوفياتي، ونيجيريا، وإيران، وفلبين، وموريتانيا، والهند، وباكستان، وكنت أظن انه ربما يحضر من باكستان رجل علم وفكر أعرفه من ذي قبل، وعلى ذلك فيتاح للصديقين الذين فرق بينهما التقسيم والوضع السياسي الشاذ بين البلدين، أن يلتقيا ويتبادلا

www.abulhasanalinadwi.org

عواطف الحب والأخوة، فلم تعد هناك طريق إلى مقابلة العلماء الباكستانيين إلا هذه المؤتمرات الدولية،لكني تأسفت جداً وصدع قلبي حينما علمت أن الأستاذ السيد أبا بكر الغزنوي نائب رئيس جامعة بهاولبور هو الذي كان مدعواً في هذا المؤتمر من الباكستان، وكان قد قدم لندن ليحضر المؤتمر الإسلامي المنعقد بها، ثم يحضر ويثني بالحضور في هذا المؤتمر، ففوجيء باصطدام السيارة في لندن، ولم يبل من الجراحات،

وكانت بين أسرته وأسرتنا علاقات دينية وروحية قديمة، وقد تكرم علي في العام الماضي بإرسال كتاب وضعه في ترجمة والده العظيم فضيلة الشيخ محمد داؤد الغزنوي أمير جماعة أهل الحديث في باكستان، وقد وجه إلي رسالة ذكر فيها حنينه إلى لقائي وقضاء بعض الوقت عندي لأيام، ولو كتب الله له هذه الرحلة لكان مبعث سرور للاخوين واعتبرنا هذا اللقاء مما يزيد في قيمة هذه الرحلة الطويلة، ولكنه كما يقول الله تعالى: (إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) إنه سافر إلى الآخرة بدل أن يسافر إلى «الرباط» وما عند الله خير وأبقى، غفر الله له ورفع درجاته!

تشكيل اللجان، والحضور في المآدب

١٢ مايو، يوم الأربعاء:

واشتغلت اللجان بوظائفها بعد الفطور، واللجنة التي عهد بها

www.abulhasanalinadwi.org

إلي يشاطرني فيها العمل الأستاذ المهدي بنعبود، وعبدالكريم الخطيب، وممثل لبنان الشيخ محمد مهدي شمس الدين مبعوث المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، ومندوب موسى الصدر القائد الديني للشيعة في لبنان، وهو من المثقفين ثقافة واسعة يمتاز بطلاقة اللسان، وله إلمام جيد باللغة الفرنسية، وهو من علماء الفلسفة وعلم النفس البارعين، وقد قام بالضبط والتحقيق لنهج البلاغة، وقد أهدى إلى نسخة بتحقيقه، وكذلك يجدر بالذكر من العاملين في هذه اللجنة الدكتور عبدالهادي التازي (المعهد الوطني للبحث العلمي) والشيخ مصطفى العلوي.

وأقام لنا مأدبة غداء رئيس المجلس البلدي بالرباط في فندق صومعة حسان، و «صومعة حسان» بناء تاريخي عريق ذو منارة شامخة، سمي الفندق باسمه، والفندق نموذج رائع للفن المعماري الأندلسي، وعقدت اللجنة بعد صلاة العصر جلستها الثانية، وكانت حفلة العشاء من جانب أمين مصلحة البناء والإسكان والسياحة في فندق صومعة حسان وتعرفنا هناك بطعام أندلسي يدعى بـ الدجاج واللوز مغلوفين في أوراق خفيفة من الطحين المصفى من القمح.

لقاءات وزيارات

١٣ مايو، يوم الخميس:

وزارنا اليوم في الصباح الأستاذ عبدالعزيز بن عبد الله رئيس

www.abulhasanalinadwi.org

مكتب التنسيق بين الأكاديميات التي تقوم بعمل التعريب والترجمة، التابع للجامعة العربية، الذي مقره الرئيسي بالرباط، ويصدر هذا المكتب مجموعة تقاريره باسم «اللسان العربي» في مجلد ضخم ويصلنا بانتظام، وكان يشف حديثه عن اطلاعه الواسع، وعنايته الكبيرة بالقضايا والأفكار الإسلامية، وكان اللقاء ممتعاً نافعاً.

وكان غداء اليوم في «نادي جولف» من جانب وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية لكني آثرت على الحضور فيه إتمام المقال العربي الذي بدأته منذ أيام في ١٠ مايو باسم: «نحن الآن في المغرب»، ولكنه لم يتم من كثرة الأشغال وزحمة الأعمال، ومن المقرر أن تنعقد جلسات اللجان في المساء.

وكانت اليوم تلاوة القرآن الجماعية في منزل الفقيد الكبير الأستاذ علال الفاسي الذي يحتفل البلد كله بعام وفاته، وكان المخلصون له والمعجبون به يتوافدون إلى منزله ويعزون ابنه، وطلب إلي الأستاذ أبو بكر القادري - وهو من المعجبين به إعجاباً كبيراً - أن أحضر هذه المناسبة ولو لوقت قصير، فلبيت ذلك وقصدت منزل المرحوم، فرأيت هناك جماعة من حفاظ القرآن الكريم - الذين كانوا سبعة أو أكثر - يتلون سورة الكهف متمايلين بقراءة «نافع» في لهجة مغربية خالصة، وبعدما انتهوا من تلاوة سروة الكهف بدأوا يقرأون قصيدة لبردة التي يهتم المغاربة بقراءتها عند هذه المناسبات.

www.abulhasanalinadwi.org

وتوجهنا من هنا إلى «مسجد نـور» الذي ينعقد فيه كل يـوم خميس اجتماع دعـوي تحت إشراف جماعـة التبليـغ في الرباط، وتحدثت أنا والشيخ أبو بكر الجزائري، وكان المسجد غاصـاً بالحاضرين، ولقونا في حب وحماسة وأخوة هي شعار «جماعة التبليغ» وأميرها في المغرب الشيخ الحمداوي مدرس في مدرسة ثانوية، ويمتاز بالفهم والاتزان في الفكر، وقد سبق لقاؤنا معه فور وصولنا إلى الرباط، وقد أخـذ منا العهد بالحضور في اجتماعه.

أشغل يوم في الرباط

١٤ مايو، يوم الجمعة:

وكان اليوم أشغل يوم من بيـن أيام إقامتنا بالرباط في يوم الثلاثاء أو الأربعـاء، سألتني السيدة حبيبة البورقادي إحدى المثقفات الفاضلات المتصلة بوزارة الثقافة اتصالاً وثيقاً، عما إذا كانت هناك فسحة في وقتي لإلقاء كلمة على دعوة من وزارة الثقافة، فوعدت لها بذلك دون تفكير طويل، شبه الوعد، وقد كنت بدوري أود أن أضع أفكاري وانطباعاتي أمام طبقة مثقفة جادة، وقد سألتني عن موضوع الكلمة فقلت سيكون الموضوع «أزمة العالم الإسلامي الحقيقية»، وقررت الوزارة أن يكون حديثي في اليوم الآتي يوم الجمعة بعد صلاة العصر، وبدأ ينشر راديو الرباط هذا النبأ منذ يوم الأربعاء،

www.abulhasanalinadwi.org

وحينما علمت أن هناك جلسة نهائية للمؤتمر قبل العصر تقدم فيها قرارات وتوصيات اللجان الجانبية للدراسة والموافقة، شغلني التفكير في القضية، وعدت أفكر كيف أغيب عن الحضور عن هذه الجلسة العامة لإلقاء حديثي الذي وعدت به، والذي سيستمز إلى ما بعد المغرب أو قبل المغرب، وأصبحت في تردد حائر، وقد عرضت القضية على الرئيس المحترم، والأمين الموقر، فقالا: أرجو أن الاجراءات الضرورية ستنتهي قبل هذا الميعاد، وسأحاول أن أحضر الحديث بنفسي، ولكني ظللت في حيرة من الأمر،لأني قد جربت مثل هذه الجلسات وعهدي بها، أنها تتخطى الميعاد، فقد تلتوي قضية من القضايا وتستقطب اهتمام المؤتمرين من أجل كثرة المساهمين والمناقشين وطول الأخذ والرد.

واتصل بي أمين السفارة الهندية الأول بالأمس تليفونياً وقال: إن سعادة السفير يريد أن يقيم مأدبة غداء على شرف قدومكم، ولكن اعتذرت عن ذلك، لأني كنت قد علمت أن الجمعية المضيفة لنا بدورها ستقيم مأدبة غداء تكريماً للضيوف وقلت: إني سأقابل سعادة السفير في الصباح، وقد كان من السهل جداً أن أعتذر عن الحضور لو كانت المأدبة المقامة غداً من جانب أي وزارة أو شخصية، ولكنها من جانب الجمعية التي عقدت المؤتمر، وقامت بإضافتنا.

وتوجهنا إلى السفارة الهندية في الساعة التاسعة صباحاً

www.abulhasanalinadwi.org

وقابلنا السفير، الذي بدا لنا بغالياً، وكان رجلاً لائقاً جاداً، اسمه «كرها» وطال بنا المجلس وتحادثنا ملياً، وتوجهنا من السفارة إلى القنصلية البريطانية لأخذ التأشيرة، فقد كان من المقرر أن أسافر من الرباط إلى لندن، وشغل ذلك وقتاً طويلاً، وعلمنا أخيراً أنه لا حاجة لنا إلى التأشيرة، وأنه سيسمح لي بالإقامة لوقت مطلوب من مطار لندن على الوقت لأني من سكان «الكومنولث»، (Commonwealth) وآسفنا أننا لم نتمكن من مصاحبة رفقتنا في خروجهم لزيارة الآثار التاريخية في المدينة، وأنهم سوف يزورون ضريح السلطان محمد الخامس ومسجده، وذلك أن اليوم كان آخر يوم في الرباط، وكانت الأشغال مزدحمة، ولم يسمح الوقت لشيء إلا أن أستعد للجمعة ونتوجه إلى المسجد، وكان من المقرر أن نصلي الجمعة في مسجد السنة.

ودخلنا المسجد فرأينا الناس منصرفين إلى تلاوة القرآن الكريم بالجهر، وجلست أنتظر زوال الشمس، ولكن بُديء بأذان الخطبة فور الزوال، ولم نر أحداً يصلي السنة ولا أدري إذا كان ذلك غير معمول به في هذا البلد، وألقى الخطبة أحد مندوبي المؤتمر العالم المصري الشيخ سليمان حسن ربيع (عميد كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف) وهو يمتلك ناصية الكَلام وسلاسة اللسان، وقدرة الارتجال كغالب علماء مصر، وكانت الخطبة طويلة ولكن بليغة.

www.abulhasanalinadwi.org

وتوجه الضيوف بعد الصلاة ليتناولوا الطعام الذي كان مهيأ في فندق الفردوس الذي يقع على مسافة ٢٠ ـ ٢٥ ميلاً من الرباط على ساحل المحيط الأطلسي، ومررنا في الطريق بمدينة «سلا» التاريخية الشهيرة السعيدة التي يتكرر ذكرها في تاريخ المغرب، والتي كانت موطن العلماء والصلحاء ومدفنهم، ووصلنا الفندق وكان جميلاً جداً على طراز الفن المعماري الأندلسي، وزاده جمالاً وبهاء موقعه، وكان منظر البحر رائقاً، وكانت مقاعدنا في جهة البحر على أذرع منه، وكانت الأمواج تداعب الساحل، وكنت غارقاً في الذكريات القديمة والعواطف المتدفقة، ومن خصائصي التي أصبحت محنة لي أن الشعور التاريخي والذوق الدراسي لا يفارقني في أي مكان وأوان، ويطلان على عقلي وفكري بظلاله الكثيفة، وقد تحول هذه الظلال بيني وبين التمتع بمناظر جذابة، وكأن الدكتور محمد إقبال قال بلسان حالي أو صور موقفي إذ قال:

«إن شعري عبارة عن البحث عن القيم القديم وإن حياتي عبارة عن البحث عن المفقود».

كان البحر مواجاً أمامي، وكنت غارقاً في دنيا التصورات والحقائق الماثلة، وأتذكر طموح العرب ومغامرتهم، الذين كانوا لا يبالون بالجبال والبحار والصحاري والقفار، والذين اجتازوا هذا البحر الأطلسي، وجعلوا راية الإسلام تخفق في إسبانيا، وكنت أردد شطر البيت المشهور للشاعر الإسلامي

www.abulhasanalinadwi.org

الدكتور محمد إقبال: «إن البحار كانت ملعباً لسفن العرب»، ولكن أين الحاضر من الغابر وأين الحال مما قال.

ورجعنا إلى الفندق الذي كنا نازلين فيه نلقي على «سلا» نظرة حب وحنين من بعيد.

وابتدأت الجلسة الخامسة للمؤتمر متأخرة في الساعة الخامسة مساء، وجاءني الأخ العزيز ظهور الإسلام الندوي وناجاني في الجلسة، وقال: إن وزير الثقافة يقول: إنه يود أن يشهد الحفلة التي ستتحدثون فيها لكنه سيحضر بعد ذلك جلسة اللجنة، فيود أن تكون كلمتكم لساعة واحدة، وذهب ظهور الإسلام يطلب السماح من رئيس المؤتمر لغيابي عن هذه الجلسة، فسمح بذلك وقال: لا بد من حضور الأستاذ محمد الرابع الندوي حتى ينوب عنكم.

وكانت الحفلة في قاعة المحاضرات التابعة لوزارة الثقافة، ودخلنا أولاً في حجرة وزير الثقافة، وقابلناه، ثم تفضل هو ووزير الأوقاف والشؤون الإسلامية في قاعة المحاضرات وبدأت الحفلة، ونهضت السيدة الفاضلة حبيبة البورقادي، وقدمت كلمتها التي أعدتها في التعريف بكاتب السطور، وقد جاء في المقال تعريف لائق بوالد كاتب هذه السطور العلامة الشريف السيد عبدالحي الحسني الأمين العام الأسبق لندوة العلماء، وأشادت بصورة خاصة بكتابه «نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر» في تراجم أعيان الهنود وأعلامهم.

www.abulhasanalinadwi.org

واستهللت حديثي فقلت: إن موضوع الحديث الذي أريد أن ألقيه اليوم، لو قدمناه سؤالاً وتساءلنا: ما هي أزمة (CIRICIS) العالم الإسلامي الحقيقية اليوم؟ فستختلف الإجابة عليه وتكون له عشرات الأجوبة، فقد يقول قائل: إنها الأزمة الاقتصادية، ويقول الآخر: إنها الأزمة السياسية، ويقول الثالث: إنها الأزمة الثقافية، ولكني أقول: إنها الأزمة الإيمانية والأخلاقية المحضة، إن أكبر ما يعانيه العالم الإسلامي من الفراغ والعوز، وأشد ما يقاسيه من أزمات، هي الضعف الإيماني والفساد الخلقي والتزعزع العقائدي، ألق نظرة على العالم الإسلامي وانظر ماذا يعوزه، إنه غني بكل شيء، يقدر عدد المسلمين في العالم نحو ٦٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠، وإن العالم الإسلامي يملك أحسن الأراضي الزراعية الخصبة الممتدة على رقعة واسعة، الزاخرة بكل نوع من الثروات المعدنية والطبيعية والنباتية والحيوانية والإنسانية، إنه يملك ذخيرة هائلة من البترول الذهب الأسود الذي هو دم الجسم الصناعي والمدني، ولا يعوزه التعليم والثقافة والذكاء والكفاءة، ووسائل النشر والإعلام والدعاية والصحافة والخطابة، ومعاهد التعليم والتربية، ولكنه رغم ذلك كله لا يملك ثقلاً في الميزان العالمي ولا دوراً مؤثراً في اتجاهات العالم وأوضاعه وحوادثه، وتجرد إلى حد كبير عن قدرة النفع والضرر التي تستوجب احترام الأمم والملل ولا يستطيع أن يقرر مصير الآخرين، وإنما هم الذين

www.abulhasanalinadwi.org

يقررون مصيره، وليس له في المسرح العلمي إلا دور المتفرج الصامت ولا يمكن أحداً أن يصوره تصويراً أبلغ وأدق وأشمل وأعمق مما جاء في الحديث النبوي الشريف:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل أو من قلة نحن يومئذ؟، قال: بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»[1].

وقلت: إني حين أرد هذا الوضع الذي يعيشه المسلمون إلى الأزمة الإيمانية فإني لا أريد به مفهوم الإيمان الكلامي والإعتقادي الذي يخرج به الإنسان من دائرة الكفر إلى دائرة الإسلام، وتجري عليه الأحكام الشرعية، ويكون مخاطباً بالآداب الدينية، أما الإيمان بحقائق الإسلام الأساسية، فإن المسلمين، لا يزالون يفوقون جميع الأمم على ظهر البسيطة في هذا الجانب، ولو وضع إيمانهم في كفة، وإيمان أمم العالم أجمع في كفة أخرى لرجحت كفتهم، وإنما أريد بذلك تلك الحرارة الإيمانية والصلابة العقيدية والإيمان كل الإيمان بكون الإسلام هو الوسيلة الوحيدة للنجاة والخلاص، والفوز في

(١) رواه أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه.

www.abulhasanalinadwi.org

الدنيا والآخرة، التي كانت مزية الصحابة رضي الله عنهم، الأمر الذي تغلغل في أحشائهم، وملك عليهم عقولهم، وجرى منهم مجرى الدم والروح.

أما الإسلام عندنا اليوم، فقد عدنا نراه ديانة من الديانات الكثيرة في العالم، تفوقها في بعض الأشياء، وتبزها في الصدق والصحة، أما عند سلفنا الصالح والرعيل الإسلامي الأول فقد كان الإسلام هو الدين الحق وحده، وما سواه جاهلية وظلمة وظلم، وأوهام وأساطير، ونحن ننشد باسم الإسلام أن يسمح له بالبقاء طبق مبدأ التعايش السلمي وأن يسمح للمسلمين بالحياة في كل بلد وقطر، كما يسمح لكثير من الدواب والحيوانات في العالم بالتوالد والتناسل والبقاء، وقد تتولى الحكومات الإبقاء على بعض السلالات الحيوانية، وتصدر في ذلك أحكاماً خاصة، وكما يحافظ في المتاحف على كثير من الأشياء الأثرية التي لم تعد تنفع اليوم وفقدت مصلحتها وقيمتها، كذلك ينبغي أن يسمح ببقاء الحضارة الإسلامية والآداب الإسلامية، وقوانين الأحوال الشخصية للمسلمين.

أما إيمان الصحابة وأسلوب تفكيرهم فيما يتعلق بالإسلام، فقد كانا يختلفان عن ذلك كل الاختلاف، يمثل ذلك ما قال رسولهم لقائد قواد الفرس ووزير الحربية عندهم «رستم» عندما سأله: ما الذي جاء بكم إلى هذا البلد؟ فقال: «الله بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا

www.abulhasanalinadwi.org

إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» كان الإسلام عندهم شعلة جوالة تحيل الأديان والمعتقدات كلها رماداً وتذيبها كالشمعة وتخففها كالندى، لا تقف في وجهه الجبال، ولا تحول دون مده البحار، وقد قرأتم قصص المغامرة والفتح والانتصار لقادة فتح المغرب كعقبة بن نافع، وطارق بن زياد، وموسى بن نصير، إن هذا الإيمان هو الذي ملأ جوانح قلوبهم وعمر طوايا صدورهم، ونور زوايا عقولهم، فكانوا ناراً محرقة على أخضر الكفر ويابسه وسيفاً بتاراً لأباطيل الجاهلية فكان كما قال الدكتور محمد إقبال: «انفلقت لصدمتهم البحار، والصحاري، وانكمشت لهيبتهم الجبال» وكانوا يرون البحار ملعباً لسفنهم كما ينظر اللاعبون اليوم إلى ميدان الهوكي والكريكت أو كرة القدم، كنت أتغذى اليوم في فندق الفردوس وأتذكر جرأة هؤلاء القادة الفاتحين المغامرين، وشجاعتهم وبطولتهم المثالية، الذين قذفوا خيلهم في البحر الأطلسي، ووسعوا حدود الدولة الإسلامية إلى أوربا.

وكذلك لا أريد بالأخلاق، الأخلاق والسلوك الظاهري، فإن ذلك لا ينقص المسلمين، وإنهم يملكون من ذلك كمية فائضة، ولكني أريد الصلابة الخلقية والاستقامة السلوكية والمبدئية، وإيثار المصالح الدينية على الأغراض الشخصية، والسمو عن التضحية بالمبدأ، لمنفعة مؤقتة، وعن الإتيان بما يأباه الضمير، ويشمئز منه القلب، واستعذاب التضحيات في

www.abulhasanalinadwi.org

سبيل الحق مهما كانت كبيرة غالية، فلو رحنا نزن أنفسنا بهذا الميزان ورأينا أنفسنا بهذا المنظار لوجدناها، بل ووجدنا قادتنا وزعماءنا قد بلغ بهم الانهيار الخلقي والتزعزع السلوكي إلى المساومة على عرض الأمة وشرفها، والوطن وكرامته، ولم يعد الصواب الدكتور محمد إقبال حينما قال عن هذه الطبقة:

«إن شيخ الحرم[1] هذا هو الذي قد يبيع كساء أبي ذر، ورداء أويس القرني، وملاءة سيدتنا فاطمة الزهراء بلقيمات ودريهمات».

ومن هنالك فإن أزمة العالم الإسلامي الحقيقية وقضيتها الحساسة هي الانحطاط الخلقي والإيماني، ولا أمل في خير ما لم يزل هذا الوضع.

ورجعنا إلى الفندق، ثم حضرنا لمدة قليلة المجلس التنفيذي للجمعية، ثم عدنا إلى حجرتنا، وكان العشاء عند مولاي مصطفى العلوي وكان مجلس الطعام قد جمع بين نخبة الأصدقاء الذين لم يزد عددهم على ٥ أو ٦، على رأسهم نائب رئيس جمعية الجامعات وعلامة المغرب ومحققها العظيم الحبيب بلخوجة عميد كلية الزيتونة في تونس، وكان الأخوة كلهم يتصلون بالدراسة والتدريس، فتطرق الحديث إلى طلاب الكليات والجامعات وعدم اجتهادهم وقلة بضاعتهم في العلم، وأرجع

---

(١) المراد من يمثل الإسلام والمسلمين، من الزعماء والملوك وعلماء الدين.

www.abulhasanalinadwi.org

العلامة الحبيب بلخوجة ذلك إلى الأساتذة الجدد الذين يتميزون بالسطحية وعدم إجهاد النفس، وسرد في ذلك قصصاً عجيبة، دلتنا على أن هذا الداء لم يعد داء بلادنا وحدها، وإنما عم في البلاد العربية أيضاً عموم الوباء، وقد أثر ذلك على النظام التعليمي من الرأس إلى أخمص القدم.

الحضور في حفلة التأبين للأستاذ علال الفاسي في الدار البيضاء والتوجه إلى مراكش ـ ١٥ مايو يوم السبت:

وكان من المقرر اليوم أن يتجه الركب بعد تناول الفطور صباحاً إلى مراكش، وقد طلب إلي أن أتوقف قليلاً في الدار البيضاء، وأحضر كممثل لجمعية الجامعات الإسلامية حفلة التأبين التي كانت الحلقة الأخيرة من الحفلات التي عقدت على وفاة الأستاذ علال الفاسي، واستجبت لذلك من أجل العلاقات التي كانت تربط بيني وبينه، وبسبب الحب والإعجاب اللذين أكنهما للمرحوم في قلبي، وقد خصصت الجمعية سيارة لي، ستكون تحت أمري وأستخدمها كيف أشاء إلى آخر عهدي بالمغرب.

ودخل الاخوة كلهم الدار البيضاء، وذهبوا لساعتهم إلى الفندق وجلسوا على مائدة الغداء وتوجهوا بعد الطعام إلى مراكش، وصليت الظهر في جامع الإمام محمد الخامس وألفيت هناك طالباً صغير السن وتقدم إلي قائلاً: هل أنت هندي؟

www.abulhasanalinadwi.org

فقلت: مالك وللهند؟ قال: في الهند لنا إخوان في الله، وكان هناك في فناء المسجد شباب قابلوني في حب وحماسة وذكروا الدعاة والإسلاميين الذين يعيشون اليوم وراء الأسوار، ولم أدر ما هو السبب في اعتقالهم والزج بهم في السجون، ولكن ذلك لم يكن غريباً عندي، لأن جميع البلاد الإسلامية تعيش هذا التناقض العجيب، وسمع التلميذ الصغير الذي لقينا على الباب حديثنا فقرأ على الحال: (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون)، قلت: يا أخي إنك تبدو ذكياً مثقفاً، وسأسجلك في مذكرتي، فقال: أبداً، قلت: هل تخاف السجن؟ قال: لا ولكن أخاف السمعة والرياء، وكان يتعلم في مدرسة قريبة من المسجد، جاء يصلي الظهر في الاجازة المتخللة، وانتهيت من الصلاة إذ وقع علي بصر أحد من إخوة جماعة التبليغ الذي استمع إلى حديثي في «فاس» وكان يسمى علياً ولكن الناس يدعونه «علي ما شاء الله» لأن ما شاء الله على طرف لسانه دائماً، وذهب بي إلى دكانه، وجددت الوضوء هناك ثم توجهت إلى حفلة التأبين.

وكانت الحفلة في قاعة شعبية على شارع الجيش، وكانت قد ضاقت بالناس، وكان كثير من الحضور واقفين خارج القاعة، وكانت تدوي بالهتافات بتحبيذ الأستاذ المرحوم علال الفاسي حيناً بعد حين، وكان يتلى مقال حول أفكار المرحوم ونظرياته وخدماته السياسية وخلفياتها، وكان المقال ذا تحليل

www.abulhasanalinadwi.org

علمي دقيق يسلط الضوء على الوضع السياسي للبلد ومراحل ارتقاء الشعور والفكر السياسي .

ثم دعيت لإلقاء كلمتي، وبدأت حديثي فقلت: إنه يؤسفني جداً أنني زرت المغرب حين كان الأستاذ علال الفاسي قد غادره إلى جوار ربه، وقد صدق الشاعر العربي:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتنابها

فقدت صديقي والبلاد كما هيا

ثم ألقيت الضوء على ثلاثة جوانب من جوانب حياته:

قلت: إنني أقدره تقديراً كبيراً، إنه بدأ حياته كعالم ديني، كان قد تخرج من جامع القرويين، وحصل العلم جالساً على حصير المسجد والمدرسة، فكان علمه راسخاً ودراسته عميقة، ونظره نفاذاً، وإنه فيما أعلم لم يتجرد عن ذوق الدراسة والمطالعة إلى آخر عمره بالحياة، وإن الأشغال السياسية لم تقف حاجزاً بينه وبين دنيا العلم والدراسة والتدريس، كما حدث مع الكثيرين، بل كانت ثقافته القديمة هي منبع محاولاته التحريرية وولائه الوطني، وجهوده وجهاده في سبيل الاستقلال، وإن هذه المزية يشاطره إياها العلماء المؤمنون في الهند الذين قادوا حركة التحرير في بلدهم فكانوا علماء الدين وقادة حرب التحرير في وقت واحد .

ومزيته الثانية أنه درس الأنظمة والفلسفات السياسية

www.abulhasanalinadwi.org

الجديدة دراسة عميقة فلم تكن معلوماته غير مباشرة SECONDHAND ولم يتخلف عن ركب الحياة، وإني أعلم أنه كانت له آراء ونظريات خاصة، وقد وضعت حول حياته كتب في اللغة الفرنسية والإنجليزية وأرجو أن سلسلة هذا التأليف ستبقى وتمتد.

ومزيته الثالثة أنه كان له اتصال ومعرفة بالهند وعلمائها ومؤلفيها ومفكريها أكثر من علماء البلاد العربية الأخرى، ولا سيما مفخرة الهند حكيم الإسلام أحمد بن عبدالرحيم المعروف بولي الله الدهلوي، الذي كان معجباً به إعجاباً كبيراً، ويثني عليه كثيراً، وكان شغوفاً بكتابه «حجة الله البالغة»، وقلما كان يلقاني ولا يذكر «حجة الله البالغة»، وكان يحله المحل الأرفع فيما يتعلق بعرض مقاصد الشريعة وأسرارها، وكذلك كان يشيد بذكر الدكتور محمد إقبال كثيراً، وكان يحفظ شيئاً كثيراً من الترجمة العريضة المنظومة لشعره.

وكان هذا الحديث موضع الاستحسان في الأغلب، وقال لي الأستاذ أبو بكر القادري وهو من تلاميذ الأستاذ علال وزملائه: إن هذا الحديث أضاء بعض جوانب جديدة من حياة المرحوم، وقد نشر في «العلم» لسان حال حزب الاستقلال خلال إقامتي بالمغرب.

وبعد ما انتهينا من إلقاء الكلمة توجهنا إلى مراكش. التي

www.abulhasanalinadwi.org

تقع من هنا على نحو ٢٠٠ ميل، ووصلنا عشاء إلى «العمالة» التي هي مقر حاكم مراكش، وعلمنا هناك أننا سننزل في «فندق القرية» وهو فندق في مكان هادىء جميل في مراكش، ونزلنا فيه وقضينا الليلة في راحة وهدوء.

زيارة الآثار التاريخية في مراكش

١٦ مايو، يوم الأحد:

وكنت قد قررت أني سأقوم برحلة مستقلة إلى مدينة مراكش التاريخية، إذا لم يكن هناك مجال لزيارتها في البرنامج الذي اتخذته جمعية الجامعات الإسلامية، لأن زيارة المغرب تبقى ناقصة بدون هذه الزيارة، ولكن من حسن الحظ أن الجمعية بدورها قد أدخلت ذلك في برنامجها، وكان من دواعي ذلك أن جلالة الملك الحسن الثاني ملك المغرب يقيم الآن في مراكش، وكان قد تكرم بدعوة ضيوف المؤتمر إلى حفلة غداء أقامها على شرفهم، وكان من المرجو زيارته، على كل فاغتنمت زيارة يوم واحد لمراكش.

اختط مراكش السلطان الطموح المجاهد يوسف بن تاشفين، مؤسس أسرة المرابطين الذين يدعون بالملثمين أيضاً، كانت ولادته في ٤٠٠ هـ قبل وفاة محمود الغزنوي بـ ٢١ سنة، وحكم ٤٧ سنة، وتوفي في ٥٠٠ هـ عن نحو ١٠٠ من عمره، وكتب التاريخ والسير مشحونة بمناقبه وفضائله، ومآثره

www.abulhasanalinadwi.org

وأخلاقه وبقصص حياته التي كان ملؤها الطهر والصفاء، والنزاهة والعفاف، والزهد والكفاف، والعزم الراسخ والإيمان الصادق، وكانت بطولته الكبرى هي معركة «الزلاقة» التي كانت في ١٢ رجب ٤٧٩ يعني بعد فتح «سومنات»[١] بـ ٦٤ سنة، وقد استنجده لمحاربة المسيحيين الذين لا تفتر غاراتهم وهجماتهم على الحكومة الإسلامية العربية الأديب الشاعر العظيم، البطل المغوار المجاهد السلطان المعتمد بن عباد، حينما حاولت الحكومة المسيحية في «طليطلة» أن تقضي للأبد على الحكومة الإسلامية التي كانت الرمز الأخير على عظمة الإسلام في إسبانيا، والمعقل الأخير للحضارة الإسلامية العربية، وحينما أدرك المعتمد بن عباد ـ الذي كانت بطولته ومغامرته كلمة إجماع عند الصديق والعدو ـ أنه لا يستطيع إخضاع هذا العدو القوي، أرسل إلى السلطان يوسف بن تاشفين يستنصره، رغم أن أعضاء الحكومة، ومستشاري البلاط المحنكين حذروه من عواقب هذه المساعدة وقالوا: إن الملوك الذين يمدون يد العون والمساعدة، لا يرجعون إلى بلادهم بعد أن تضع الحرب أوزارها، إذاً فإن استدعاء يوسف بن تاشفين معناه الحرمان من الحكم وضياع السلطة، وكأن رد

---

(١) المعبد الهندكي الأكبر في الهند، الذي دخل فيه إسكندر الإسلام محمود الغزنوي فاتحاً، وكسر صنمه الأكبر، وقد حاول سدنته أن يصرفوه عن ذلك وعرضوا عليه ثروة هائلة كقيمة للإقتناع، فرفض ذلك قائلاً: «لا أحب أن أشتهر ببائع الصنم، إنما أحب أن أشتهر في التاريخ بكاسر الصنم».

www.abulhasanalinadwi.org

المعتمد على ذلك ما يدل على غيرته الإسلامية المتأججة، التي يجدر بأن تسجل بماء الذهب، قال: «أن يرعى أولادنا إبل العرب المراكشيين خير من أن يرعوا خنازير الصليبيين»، يعني أن الحرب لو أسفرت عن كوننا مستعبدين للعرب الذين هم إخواننا في الدين، خير من أن نظل عبيداً أذلاء للمسيحيين، وقد هزم يوسف بن تاشفين المسيحيين في معركة الزلاقة هزيمة شنيعة جعلت منارة من رؤوس القتلى وجعلت كل أسرة مسيحية تبكي على قتلاها، وسوف تبقى مأثرة يوسف بن تاشفين هذه غرة في جبين التاريخ، وكفيلة بأن تدخله في قائمة المجاهدين الكبار والفاتحين الأبطال في العالم، لكن الذي كان نقطة سوداء في صفحة بيضاء هو أنه هجم على المعتمد بن عباد بعد عدة أعوام وجاء به أسيراً إلى مراكش، وحبسه في «أغمات» وذلك على إغراء[1] متكرر من ضباطه الذين تحلبت أفواههم وتلمظت شفاههم للثروة والمدنية الزاهرتين الزاهيتين في إشبيلية، وقرطبة، وعاش المعتمد في حبسه عيشة غيرة وإباء وشمم، حتى تخلص من حبس الحياة وانتقل إلى جوار ربه وفسيح جناته، وله قصص مؤلمة وأبيات رقيقة مرققة قالها في هذه الأيام من حياته، لا ينساها تاريخ الأدب العربي،

---

(١) ويرى بعض المؤرخين الناقدين أنه أقدم على ذلك من أجل صيانة إسبانيا من خطر نفوذ المسيحيين، ولم يكن هناك طريق إلى ذلك إلا أن تدخل إسبانيا تحت إشراف حكومة المرابطين القوية المتماسكة، وأن لا يكون الخطأ الذي ارتكبه أحمد شاه الابدالي في الهند حيث رجع من الهند أدراجه بعدما دال للمسلمين من المرهتة المعتدين، وكسر شوكتهم.

www.abulhasanalinadwi.org

والمؤرخون لسان واحد على فضل المعتمد وشجاعته المنقطعة النظير وعظيم مروءته وشهامته.

ومراكش مدينة الآثار التاريخية، وظلت مدة طويلة عاصمة المغرب الأقصى وكانت مقر الخلافة في عهد أسرة الموحدين، والعاصمة لها مغناطيسيتها لا في داخل البلد وحده، بل في العالم المعاصر أيضاً، إنها تجذب رجال الفضل، ونوابغ الفنون، وأئمة العلوم والوجهاء والنبلاء، والصناع والمجودين من كل نوع، جذب المغناطيس للقطع الحديدية، حتى المشايخ وأهل القلوب واليقين، الحريصين على خدمة خلق الله، وإرشادهم وتوجيههم إلى ما ينفعهم في دنياهم وعقباهم، يؤمون العواصم ـ حرصاً على إفادة كبيرة، ومكاسب كثيرة، في مدة قليلة، والحصول على نتائج خيرة ـ رغم ما تموج به من أنواع المفاسد التي بسببها يجعلونها مراكز جهودهم الإصلاحية، وهذا ما يؤكد تاريخ بغداد، وتاريخ غرني ودهلي، وتاريخ قرطبة ومراكش.

ومن هنا نجد في كل مكان في مراكش أضرحة العلماء والمشايخ، وأطلال مدارسهم وزواياهم، وقصور الملوك والسلاطين أولي المنعة والقوة، والشوكة والأبهة، وقد أهدى إلي أحد الأصدقاء الأفاضل كتاباً باسم «الإعلام بمن ورد مراكش من الأعلام» دلتني دراسته على أن هذه المدينة كانت في عهودها الزاهرة منتجع أئمة العلوم والفنون، وكبار الأولياء والصالحين، ومرمى أبصار ذوي الحاجات من كل نوع، ومحط

www.abulhasanalinadwi.org

الناس من كل حدب وصوب .

ولم يكن الأسبوع الكامل ليكفي لزيارة هذه الآثار، فضلاً عن يوم واحد، قد كان أمير جماعة التبليغ في الرباط الأستاذ الحمداوي وعدني أنه سيقدم مراكش ويعينني على زيارة الآثار القديمة والأمكنة التاريخية، وقد أخطر هو بقدومي إلى مراكش، للشاب المثقف الصالح شهاب عبداللطيف محمد، الذي قصد وطني «دار الشيخ علم الله الحسني» التي تقع على غلوة من مدينة راي بريلي «في ولاية اترابرديش الهند»، يزورني منذ مدة طويلة، والشاب ذو اطلاع واسع على مدينة مراكش وما يقع فيها من آثار، فحضر للفندق صباحاً هو والأستاذ الحمداوي مع تاجر كبير في المدينة يملك مصنع نسيج الثوب، وخرجنا لزيارة الآثار على سيارته، ولم يكن عندي من الوقت إلا الفترة ما بين الصباح إلى الظهر، فحاولنا أن لا تضيع علينا لحظة منها وأن نزور من الآثار ما يمكن زيارته في هذا الوقت القصير .

وقد زرنا من أضرحة العلماء والصلحاء، ضريح مفخرة المغرب القاضي عياض مؤلف كتاب «الشفا في تعريف حقوق المصطفى»، وضريح الإمام السهيلي شارح «سيرة ابن هشام»، وضريح محمد بن سليمان الجزولي صاحب «دلائل الخيرات»، ومن أضرحة المشايخ وأولياء الله، ضريح الشيخ أبي العباس السبتي، وضريح صاحب الغار أبو يعقوب يوسف بن علي،

www.abulhasanalinadwi.org

ومن أضرحة الملوك والسلاطين ضريح أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، منشيء مدينة مراكش، وأضرحة الملوك السعديين، وقد دعونا الله أن يغفر لهم ويسامحهم، وهذه المقابر تقع في أمكنة خضراء، وتقوم عليها مبان رائعة ذات رسوم ونقوش بديعة، وزرنا ضريح مولاي سليمان أيضاً، وهو من أجداد الملك الحالي، وأما من المساجد والمدارس فزرنا أطلال مسجد المرابطين، الذي حول فيما بعد إلى مسجد الموحدين، وهو من بناء يعقوب المنصور الموحدي، باني الرباط، ومررنا بمسجد علي بن يوسف الذي كان يحتضن مدرسة تداني جامع القرويين، وزرنا مدرسة ابن يوسف التي كانت في عهد بني مرين، وكذلك شاهدنا مسجد يعقوب بن منصور السعدي.

ومن بين القصور الملكية، رأينا قصر الباهية، الذي بناه وزير السلطان مولاي حسن والسلطان عبد العزيز أحمد بن موسى الحبشي الأصل، في عهده الزاهر، وتجلت في بنائه شهامته ورحابة صدره، وندى راحته، فجاء آية في البناء والهندسة ولا يزال محط السياح والزوار منذ اليوم الأول، يتوافد إليه الناس يزورونه من قاصي الأرض و دانيها، وكان هذا الوزير ذا نفوذ كبير وصاحب كلمة عليا في المغرب كله، وكان هذا القصر مقر أمانته، وبيت حريمه أيضاً، وقصيدة البردة مرسومة على جدرانه، وزيارته تعطي صورة واضحة عن عيشة الأمراء والوزراء ومدنيتهم في عصرهم، وزرنا المنارة،

www.abulhasanalinadwi.org

وهي بركة عريضة طويلة بنيت في عهد السعديين، ولم يستطع المهندسون في يومنا هذا أن يتوصلوا إلى طريق جلب الماء إلى هذه البركة فيملأ فيها الماء اليوم على طريقة متبعة، وبجانبها بستان الزيتون يرجع تاريخه إلى هذا العهد، ورأينا السور الذي بناه علي بن يوسف بن تاشفين من أجل التحرز من غزو الموحدين، وذلك على إيعاز من ابن رشد فيما يقال، ورأينا باب الرباط الذي كانت الأحكام الشرعية تجري فيه، ورأينا منتزه أكدال، وهو منتزه كبير يقع بجانب القصر الملكي، وفيه بركتان كبيرة وصغيرة، وبستان الزيتون.

وقد سجلنا فيما يتعلق بالقصور شيئاً كان جديداً علينا، أن معظم القبور القديمة وضعها يدل على أن أقدام الموتى إلى القبلة، وقال لي مرافقي شهاب بن عبداللطيف أن ذلك هو الأفضل في المذهب المالكي، ولكن ذلك لم يقنعني لأن الإمام مالك نفسه وجميع القبور في البقيع وجنة المعلى، وقبر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم أيضاً تتوجه إلى القبلة.

ورجعنا عن زيارة هذه الآثار، والقلب مؤمن بفناء العالم، وزوال الملك والسلطان وضعف الإنسان، وطول عمر البنيان، حتى كَلَّ عقلي، وتعب فكري، من مثل هذا الانفعال والتأثر، وعادت الدنيا تبدو كأنها لعبة الصبيان ودمية الأطفال، وعادت الحياة يخيل إليَّ كأنها أضغاث أحلام، وصدق الشاعر الأردي حينما قال: «كم محت الأيام والليالي آثار القادة والفاتحين والنوابغ

www.abulhasanalinadwi.org

والعبقريين، وكم أكلت الأرض كباراً كانت عظمتهم تناطح السحاب».

ثم جاء بنا مرافقنا الحاج محمد بن إدريس إلى بيته، الذي يقع في قاعة بني ناهيد، وصلينا الظهر وتغذينا، وقد دعا إلى الطعام بعض أصدقائه الآخرين، واسترحنا قليلاً ثم رجعنا إلى الفندق.

وكانت بعد صلاة العصر، حفلة المتخرجين في دار الحديث الحسنية، وتلا فيها سكرتير الملك رسالته، ثم ألقيت كلمات، وكنت قد عزمت على أن أرتحل مساء اليوم بعد المغرب إلى الدار البيضاء، ومنها إلى لندن، وقد أبرقت إلى الأخ العزيز مسرور أحمد اللكهنوي في لندن بقدومي إليها، لكن قابلني أمين جمعية الجامعات الإسلامية بعد انفضاض الحفلة وألح علي أن لا أغادر المغرب غداً، لأن الملك يقيم مأدبة، وسيكون لقاء مع الملك، كذلك أصر علي الإقامة الاستاذ محمد بن البشير، فاضطرني ذلك كله إلى أن أفسخ عزمي، ونويت المكوث ليوم واحد نية مترددة، رجاء أن يكون اللقاء مع الملك مفيداً، يتيح لي فرصة حديث معه وإلقاء كلمة فيما يهم الإسلام والمسلمين في هاته الديار.

ورجعت إلى الفندق، وكنت متضايقاً جداً، وأقول في نفسي مرة بعد أخرى، قد تعجلت في تغيير رأيي وتبديل

www.abulhasanalinadwi.org

برنامجي، هل يكون هذا التأجيل نافعاً أم لا، واشتد فيَّ هذا الشعور، حتى عزمت على أني سأستميح الشيخ محمد الفاسي بالرحلة، وأتوجه إلى لندن في الصباح المبكر، وأركب من الدار البيضاء الطائرة التي حجزنا فيها المقاعد، ولكن ما تمكنت من لقاء أحد من المسئولين، وما رأيت أن أغادر دون إخطار المسئولين بذلك، على كل أجلت الرحلة للغد، ولكن قضيت الليلة في ضيق وتردد.

المأدبة الملكية، وزيارة الملك

١٧ مايو، يوم الاثنين:

وبدا لي أن أستكمل زيارة بعض الآثار التي فاتتني زيارتها بالأمس، وقد ذكرت عدداً مما رأيته اليوم في السطور الماضية مع ما ذكرت، من الآثار والأمكنة، ورغم ذلك لم أستطع أن أوفي زيارة مراكش حقها، إن معظم سياح أوربا يؤمون مراكش، ومن دواعي ذلك طقس مراكش في الشتاء والشمس التي يحرصون عليها حرصاً كبيراً، ثم كثرة الآثار التاريخية والقصور الملكية، ومما زرته اليوم كان جامع الكتبية، الذي هو أكبر الجوامع وأشمخها ومن أجلها في المغرب ولكنه اليوم محتاج إلى الترميم والإصلاح، ويقولون إنما سمي بذلك لأنه كان هنالك ثمان مائة دكان للوراقين والتجار في الكتب.

www.abulhasanalinadwi.org

منارة الكتبية:

هذه المنارة ذات سبعة طوابق، وارتفاعها ٢٧٠ قدماً وسعتها ٥٠ قدماً، على حين أن منارة قطب الدين أيبك الشهيرة في الهند، ارتفاعها ٢٣٨ قدماً، وسعتها ٤٧ قدماً ونصف، وقد بني هذا المسجد قبل منارة قطب بأربع سنوات.

وبما أنه كان من المقرر اليوم الحضور في المأدبة الملكية، تعجلنا في الرجوع إلى الفندق، حتى نحضرها مع جميع الرفقة، وكانت المأدبة في بستان، وكانت حياض الأزهار وصفوفها، تمثل الجمال وتبعث الروعة والسحر، مما كان يدل على أن أراضي هذه البلاد مخصبة مغلة، وقد كانت مقاعدنا في فناء بناء، وكان الخدم الملكي مشمرين زيهم لتقديم النزل إلينا، وكانوا يبدون سودانيين، وكان مراقبهم أيضاً قائماً، وكان يتلقى الضيوف سكرتير الملك الأول أحمد بن سودة، وكان الطعام خمسة أنواع مغربية خالصة، موضوعاً في صينيات كبيرة، توضع كل صينية بين كل أربعة أو خمسة رجال، كانوا جالسين مجتمعين، وكان اللحم هو محل الصدارة في الطعام، وكانت ترفع الصينية بعد قليل، وتوضع أخرى.

ولما انتهوا من الطعام رجعوا إلى الفندق، وتوجه الركب بعد صلاة العصر إلى قاعة المجلس البلدي، وتناولوا فيها

www.abulhasanalinadwi.org

الشاي والكعك، ثم توجهنا إلى القصر الملكي ودخلنا فيه، فأقمنا في دائرة مثلثة، وشرف الملك وسلم وعرف كلاً من الضيوف إلى الملك رئيس الجمعية الشيخ محمد الفاسي ـ وهو أستاذ الملك ـ وكان الملك يصافح كل واحد ويستخبر أحواله، ولما انتهت سلسلة اللقاء والتعارف والتحية، كلفت أن ألقي كلمة نيابة عن جميع الأخوة الضيوف.

وبدأت حديثي قائلاً: «إني أكتفي بالتحية التي علمنا إياها نبينا الأعظم وجدكم الأجَل محمد صلى الله عليه وسلم (أرواحنا فداه) أعني السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وكذلك أكتفي لكم بالدعاء الذي يدعوه الخطباء في يوم مبارك في ساعة مباركة وعلى منابر المساجد كل يوم جمعة أعني: «اللهم انصر من نصر دين محمد صلى الله عليه وسلم واجعلنا منهم».

وأضفت قائلاً: إنني أسعد بتبليغ رسالة كريمة إليكم عن العالم الإسلامي، أراها أمانة في عنقي ومسئولية على عاتقي، وهي أن المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ينتظرون بفارغ الصبر أن يطلع من أفق العالم الإسلامي نجم جديد، يعلقون به آمالهم، إنهم يعيشون وضعاً مردياً عصيباً عجيباً، يحتاجون فيه إلى قائد عصامي، مؤمن ألمعي، يمتاز بإخلاصه ويقينه، وعزمه الراسخ وقلبه الواثق، وقد صور القرآن هذا الوضع تصويراً بيناً معجزاً فقال: (حتى إذا ضاقت عليهم

www.abulhasanalinadwi.org

الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه).

إن المسلمين يعيشون مثل هذا الوضع ولا يرون ملجأ من الله إلا إليه، وقد كان يطلع من أفق العالم الإسلامي في الماضي شخصية عملاقة عصامية، وتحول مجرى التاريخ لكن ذلك يحتاج إلى الإيمان والإخلاص، والشهامة والغيرة، وصدق الولاء والوفاء وإنما ينهض بذلك من يريد أن يخدم الإسلام ويرضي ربه، ويقنع ضميره، ويؤدي مسئوليتـه سـامياً عـن الأغراض السياسية والأغراض الشخصية، وكان الناس يتطلعون في هذا العهد الأخير إلى والدكم العظيم السلطان محمد الخامس، ولكن لم يمهله الأجل، ومن يدري إذا كان الله قد كتب لكم هذا الشرف، ويريد أن يسوق إليكم هذه السعادة».

ثم استماح عميد كلية اللغة الشيخ سليمان حسن ربيع المصري بإلقاء حديثه، فألقى كلمة موجزة يدور جلها أو كلها حول الأزهر الشريف، ودوره وخدماته، وأعقب بعض الاخوة الآخرين الذين أبدوا عن حبهم العميق للملك وإخلاصهم له.

ثم ارتجل الملك خطبة كانت فصيحة تجري في صميم العربية، تتخللها متون بعض الأحاديث مما دل على أنه يدرس الحديث الشريف، وأن له نظرة على دواوين الأحاديث أيضاً، استهل حديثه بالتنويه بوالده وتربيته له وقال: إنه أخذني بتربية أشربت في قلبي حب العلماء واحترامهم، وذلك الذي جعلني

www.abulhasanalinadwi.org

أتشرف في وقت بلقاء هذا العدد الكبير من العلماء من مختلف البلاد والأقطار، ثم ذكر العلماء بمسؤولياتهم، وضغط على الجانب الخلقي والسلوكي في الدين، ودعا إلى تعليم اللغات والعلوم الغربية.

ويبدو أن جلالة الملك في ٤٠ ـ ٤٥ من عمره، وهو ربعة من الرجال، كأنه قضيب، يعلو وجهه الشرف والتواضع، يرتدي الزي المغربي وينطق بالعربية الفصحى، وينحدر من أشرف سلالة، كل ذلك جعله موضع الحب والاحترام ولبعض العاملين في مجال الدعوة والعمل الإسلامي ملاحظات، ووجهات نظر، وتمنيات وترقبات، يبعثها الحب للإسلام والحب لهذه الأسرة الشريفة التي أنقذت البلاد في فترات حالكة، ولم نستطع أن نتوصل ـ من أجل ضيق الوقت وكثرة الأشغال ـ إلى المبررات والمصالح التي تحمل جلالة الملك على انتهاج سياسة خاصة وأن نحللها تحليلاً حيادياً، ولكنه رغم ذلك يستطيع أن يكسب شعبه، وأن يكون شخصية محترمة في أعين الجميع إذا أمده الإخلاص والعزيمة، ووفق إلى جهود مخلصة صحيحة في صالح الدين والوطن، وقد كان أول حاكم مسلم بعث قواته لمساعدة العرب في حربهم مع إسرائيل عام ١٩٦٧م، ولكن جمال عبدالناصر لم يسمح باستخدامها، وكذلك قاد «المسيرة الخضراء» ضد إسبانيا، فيما يتعلق بالصحراء المتنازع عليها بين المغرب وإسبانيا، ونجح في

www.abulhasanalinadwi.org

ذلك نجاحاً موفقاً، وزاد اعتباره في أعين الشعب، ومن هناك فشلت محاولة قتله، واغتياله مرتين، ووضع القائمون بمكيدة الاغتيال السلاح.

والفضل في ذلك كله يرجع إلى والده الصالح السلطان محمد الخامس، الذي وجدنا كل طبقة من طبقات الشعب المغربي لساناً واحداً في الثناء عليه، وذلك أنه كان نزيهاً تقياً، عاش حياة فوق كل شبهة، ثم إنه قاوم الاستعمار الفرنسي مقاومة جريئة وثبت أمامه ثبوت الجبل الراسي، ولم يرض بمساومتهم رغم ما قدمه الفرنسيون في ذلك من إغراءات وطالب باستقلال المغرب كله، وتمسك بمبدئه إلى آخر لحظة، مما سبب له أن يعيش في المنفى منذ ٥٣ م إلى ٥٥م.

وقد اشتهرت نكتة مليحة في عهد الاستعمار الفرنسي على طرف الألسنة في المغرب «السلطان محمد الخامس في القمر» «السلطان محمد الخامس في القمر»، وكان الناس يقولون في لهجة ملؤها الثقة والقوة، حتى صار الفرنسيون يفكرون فيما إذا كان ذلك صحيحاً، ثم لما تحرر المغرب وتقلد زمام الحكم غمرت الناس موجة فرح وسرور، ولو مد الله في عمره، وكتب له أن يحكم سنوات أخرى، لكانت المملكة المغربية، دولة إسلامية قوية تستأثر بكثير من المزايا التي تجردت عنها معظم البلاد العربية الإسلامية، لكن المغرب حرم هذه الشخصية المتميزة، وتوفي إلى رحمة الله بعد عملية جراحية

www.abulhasanalinadwi.org

عادية، وعادت المسؤولية على عاتق ولده الشاب الذي يعتبر ذا شخصية محنكة ذات عزيمة وطموح متفق عليها عند الشعب، وهو يحكم هذه المملكة المخصبة الواسعة المترامية الزاخرة بالثروات الطبيعية ـ التي وسعت حدودها الصحراء التي حصلوا عليها بعد جهود وجهاد، ويربو عدد سكانها على مليون ونصف، يجمعهم دين واحد وهو الإسلام ومذهب فقهي واحد هو المذهب المالكي ـ وإنها تواجه تحدي الحضارة الغربية ـ بحكم كونها على باب المغرب ـ أكثر من أي بلد إسلامي أو عربي آخر مما يحوجها إلى ذكاء أكثر، وجرأة أوفر، ويزيد القضية تعقيداً أن العصر عصر القلق والاضطراب والثورات وأن كثيراً من القوى والحركات الداخلية والخارجية تمارس نشاطاتها السلبية.

وتوجهنا ليلاً إلى الدار البيضاء متأخرين رغم محاولة السرعة، ووصلنا في الساعة الواحدة، وقد حجز لنا أمين الجمعية غرفات في فندق «مرحبا»، فنزلنا فيه، واسترحنا قليلاً، ثم بدأنا نستعد للرحلة، وقد سبقنا إلى الدار البيضاء الاستاذ الحمداوي، فذهبنا معه إلى مقر جماعة التبليغ وألقينا كلمة موجزة، ثم توجهنا إلى المطار، وأقلعت الطائرة في الساعة العاشرة نهاراً إلى لندن، وهبطت على مطار «طنجة» لنصف ساعة تقريباً، ويقيم في طنجة على قرب من تطوان العالم المغربي الضليع والمفكر الكبير الأستاذ عبدالله كنون عضو

www.abulhasanalinadwi.org

رابطة العالم الإسلامي، ورئيس رابطة علماء المغرب، ولا يستطيع أن يبرح مكانه من أجل اشتداد المرض به، وقد دعاني لزيارة طنجة وتطوان، ولكن قلة الوقت لم تسمح بزيارة هذه المدينة الساحلية التي هي من أجمل المدن في المغرب، وأكثر من ذلك قلقاً وأسفاً أن صديقنا الفاضل وزميلنا القديم الاستاذ محمد العربي الهلالي يقيم في تطوان ولم يحضر الرباط من أجل وهن صحته، وقد وجه إلي في حب وإخلاص دعوة الحضور والإقامة لأيام في تطوان لكن لم أتمكن من إستجابة دعوته والآن تمر طائرتنا بطنجة، فكانت لنا فرصة ذهبية للقائه على المطار، لكنه قد غادرها من ذي قبل إلى إسبانيا للتداوي.

وأخيراً وداعاً لأرض المغرب التاريخية وتحية لها من زائر شرقي، وعليها رحمات رب المشرق والمغرب الذي ربط بينهما بالإسلام ربطاً حتى أصبحا لؤلؤتين في عقد واحد، وتحية لأبنائها البررة الذين غمرونا بحبهم، وتلقونا بالأخوة الإسلامية وكرم الوفادة العربية، والذين لا يزالون على الوفاء والولاء للرسالة التي حملها إليهم الدعاة الأولون والقادة السابقون.

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

نحن الآن في المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد!

فقد سافر سماحة أستاذنا الكبير السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، أثناء وجوده في الربوع المقدسة، إلى المغرب العربي الأقصى لأول مرة على دعوة من المسؤولين عن رابطة الجامعات الإسلامية، في الأسبوع الأول من شهر جمادى الأولى عام ١٣٩٦ هـ المصادف شهر أيار عام ١٩٧٦م، للحضور في مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية الذي عقد في الرباط في الفترة ما بين ١١ و ١٧ أيار، لدراسة المشكلات التعليمية والتربوية ووضع حلولها، ومسائل المعاهد الكبرى والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي.

وقد نظم رحلته هذه معالي الشيخ محمد صالح القزاز أمين عام رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ورجا من سماحة لشيخ الندوي أن يمثل رابطة العالم الإسلامي في هذا المؤتمر، سافر مع مرافقه العزيز الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي ئيس قسم الأدب العربي بدار العلوم ندوة العلماء الذي مثل دوة العلماء في هذا المؤتمر.

www.abulhasanalinadwi.org

وانتهز سماحة الشيخ الندوي فرصة وجوده في هذه البقعة الإسلامية الطيبة والبلد العربي الجميل، فخاطب أهله وتحدث إليهم بما فاض به قلبه المؤمن من عواطف الحب والأخوة وبما هبت عليه من نفحة الإيمان والحنان يوم وطئت قدماه أرض المغرب الإسلامي العربي، كشأنه في جميع الأقطار والبقاع التي زارها فخاطبها بكلام رقيق جميل في أسلوب الداعية الحكيم، والعارف بقضايا الشعوب ومصائر الأمم، ومن الذي لم يقرأ «أسمعياته» يوم زار مصر والشام، والحجاز والكويت وإيران، ولم يطلع على محاضراته يوم وصل إلى لندن وبرلين وجنيف وباريس ومدريد.

أما هذه الكلمة القيمة التي هي بأيدينا والتي بدأها في الرباط، فإنها تفوق أخواتها في فصل الخطاب والضرب على الوتر الحساس والبيان الساحر الخلاب، وهي إذا كانت تشرح الوضع الحالي السائد على الأقطار الإسلامية والدول المسلمة، وما دخل في قلوب المسلمين من يأس من عودة الحياة الإسلامية الصحيحة والمثل العليا إلى مجتمعهم، ومن تشاؤم بالفساد الشامل الذي حل ببلادهم وغزا عقر دارهم، فهي تقدم لها الحل الوحيد لإزالة هذا الوضع وتنير لها الطريق إلى الغاية المشرفة.

كما أنها تنطوي على عصارة تاريخ المغرب الإسلامي

www.abulhasanalinadwi.org

الأقصى وصلته بالدعوة الإسلامية والبطولة العربية، والكفاح المخلص ضد كل واغل ودخيل، الأمر الذي لا يتسنى لدارسي تاريخ هذه البلاد إلا بعد مراجعات طويلة وعكوف طويل على دراسة الموضوع.

ونرجو أن تعم فائدة هذه الكلمة القيمة جميع القراء والدارسين ويتحقق بها ما أراده المؤلف الكبير من إبداء الرأي وبذل النصح للشعب وأولياء الأمور وقادة الفكر ورجال التربية والتخطيط الحضاري، وما ذلك على الله بعزيز.

مدير تحرير مجلة «البعث الإسلامي»
سعيد الأعظمي الندوي

١٧ جمادى الثانية ١٣٩٦ هـ

www.abulhasanalinadwi.org

www.abulhasanalinadwi.org

بسم الله الرحمن الرحيم

قدرت لي زيارة أكثر الأقطار الشرقية الإسلامية في شرخ الشباب، وفي فجر الحياة وظهرها، وتأخرت زيارة المغرب الإسلامي العربي الحبيب ـ لحكمة يعلمها الله ـ إلى أن دنا الأصيل ومالت شمس الحياة إلى المغرب.

لقد تأخرت زيارة المغرب الحبيب جسدياً وبحساب الشهور والأعوام، ولكن لم تتأخر زيارته والتعرف به في ظلال العلم والدراسة، وفي رحاب المكتبة الإسلامية العالمية الواسعة، التي يشغل فيها المغرب الإسلامي حيزاً كبيراً وله فيها ركن خاص هو من أغنى أركان المكتبة وأجلها، وقد عشت في أطيافه، وعشت مع أعلامه ونوابغه، ردحة من الزمن، وتقلبت بين مدنه وعواصمه، وجوامعه وجامعاته، وحكوماته وحضاراته، وبطولاته ومغامراته، وعثرته ونهوضه، وسايرت ركب تاريخه الطويل المليء بالألوان المختلفة، والأحداث الجسيمة، التي تمر بها جميع الشعوب الحية الكريمة القوية الراجحة في ميزان الشعوب والأمم الغيورة على رسالتها وشخصيتها، المحاطة بالأعداء والمنافسين من كل جانب.

وقد حتم على المغرب لكونه على مقربة من أوربا وعلى آخر حدود العالم الإسلامي في جهة الغرب، أن يكون مرابطاً دائماً،

www.abulhasanalinadwi.org

فليس «الرباط» هو المدينة الواحدة التي هي عاصمته اليوم، بل المغرب كله الرباط، وقد أثبت التاريخ أنه كان رباط الفتح.

وكان المغرب المدخل الذي دخلت منه الكتيبة المؤمنة تحت قيادة طارق بن زياد في الأندلس، ونقطة انطلاق للمد الإسلامي والإشعاع العلمي العقلي في أوربا، فكانت دولة، وكانت حضارة، وكان علم، وكان عقل، وأصبحت الأندلس أمنية الفاتحين، وأغنية الشعراء والمتغزلين، وموضع المؤرخين والجغرافيين، وكانت جنة الدنيا، وسوق العلم، ومثابة العلماء، ومنتجع الشعراء، وكانت ذات مدرسة في الفقه والشعر والأدب، والفلسفة والفن المعماري، وكانت فيها «مرسية» و «بلنسية» و «جيان» و «شاطبة» و «قرطبة» و «إشبيلية» و «غرناطة» وكانت فيها مدينة «الزهراء» وقصر «الحمراء».

والأندلس مدينة للمغرب الأقصى في فترات كثيرة من تاريخها، فكان المغرب سنداً لها ومدداً، يغيثها في أحلك فترات التاريخ وأدقها، بأبطال مجاهدين وقادة مغامرين، ينقذونها من الاحتضار والانهيار، ويمنحونها قسطاً من الحياة والقوة نخص بالذكر منهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بطل وقعة «الزلاقة» (سنة ٤٧٩ هـ)، وهو الذي اختط مدينة «مراكش» والقائد المجاهد أبا يوسف يعقوب المنصور الموحدي بطل معركة «مرج الحديد» (٥٩١ هـ) وهو الذي

www.abulhasanalinadwi.org

بنى «رباط الفتح» تذكاراً لهذا الفتح المبين، والمجاهد العظيم علي الشريف الحسني (٧٦٢ ـ ٨٤٧) جد الملوك السجلماسيين العلويين في المغرب الأقصى وجد الأسرة الحاكمة اليوم، دخل عدوة الأندلس للجهاد مراراً، ودُعي إلى الملك فزهد فيه، وقال لا أريد أن أحبط عملي وأشوبه بمنفعة دنيوية.

وعفواً أيها المغرب الحبيب من الانتقال السريع إلى الأندلس، ودخولها في هذا الحديث الخاص بالمغرب الأقصى، فقد هبت علي نفحة من هذا الفردوس المفقود وجاءني أريج من أجوائه العطرة وتربته الندية الزكية التي اختلطت بها دموع المسلمين ودماؤهم، وتجلت فيها عبقريتهم وإنسانيتهم في أروع مظاهرها، فالأندلس على غلوة من المغرب إذا وقف الواقف على مضيق جبل طارق، ولقرب المكان حكم ليس للبعد.

كان المغرب الإسلامي والعربي الذي نشأ وتكون في أواخر القرن الإسلامي الأول دليلاً على إنسانية رسالة الإسلام، وعلى قدرته العجيبة على إخراج الأقاليم والشعوب من إطارها الضيق ومن زاوية الخمول والخمود التي عاشت فيها قروناً طويلة، وفي بعض الأحيان آلافاً من السنين، إلى العالم الفسيح، ومن الانطواء على نفسها والانشغال بالمنافسات القبلية والحروب الداخلية، والنظرة الضيقة إلى الحياة وإلى الكون إلى مسايرة الركب الإنساني السيار، بل وإلى قيادته وتوجيهه أحياناً وتمثيل دور خاص في بناء الحضارة وتكوين العلوم، والعناية بالقضايا

www.abulhasanalinadwi.org

البشرية ومشكلاتها وأزماتها، فقد عاش هذا الحزام الشمالي الغربي الممتد من ليبيا إلى المحيط الأطلسي، مفصولاً عن العالم المتحضر المتطور المائج بالحركات والنشاطات والدعوات الدينية والمدارس الفكرية، لا شأن له بالعالم الخارجي، لا تتصل به الامبراطورية الرومانية إلا من الناحية العسكرية، والاستعمار الروماني، ليست له شخصية متميزة، ولا رسالة كريمة، ولم تعرف هذه البلاد المنتشرة من طرابلس إلى مراكش في تاريخ القرن السادس والسابع الميلادي في أكثر الأحيان إلا بالقسوة والفروسية وشدة الشكيمة، وتمرد أهلها على الفاتحين، حتى ضرب بسكانها الأصليين ـ ومعذرة إلى من ينتمي إلى هذه الأصول الكريمة ـ المثل في الوحشية والنخوة فكانت كلمة «البربر» و «البربرية» مرادفتين لهما في المعاجم والآداب واللغات الكثيرة، ولم يعرف عنها نشاط حيوي إلا التشاغل بالحروب الداخلية وشدة التمسك بالعادات القديمة والتقاليد القبلية، لا لغة راقية، ولا حضارة رقيقة، ولا دين معقول، ولا مدينة مشهورة، وكل ما أثر عنها من المدنية والعلم في العصر القديم اندثر ودفن تحت ركام المباني وأنقاض المدن.

وكان دليلاً كذلك على قدرة الإسلام العجيبة على إشعال المواهب، وتفتيق القرائح، وتنمية الملكات، وتحريك الميول والرغبات، وتوجيهها إلى غايات نبيلة وجهود هادفة، ومشاريع بنائية إيجابية، والنظرية الواسعة المتفتحة إلى العالم وإلى الشعوب

www.abulhasanalinadwi.org

والأمم، وتسخير الطاقات واستخدام الوسائل لصالح الإنسانية، فلما هبت على هذه الناحية القاصية المجهولة لكثير من المطلعين والدارسين والمؤرخين والجغرافيين نفحة الإسلام، قفز إلى الوجود عالم جديد، كل شيء فيه جديد.

وقامت فيه مدينة «قيروان» و «فاس» و «مكناس» و «مراكش» و «باجه» و «سوسة» و «سرقسطة» و «جاية» و «تلمسان» و «تونس» أنجبت أفذاذاً في الحديث والتفسير، والفقه والتصوف، والشعر والأدب، والنقد والتاريخ، والفلسفة وعلوم الحكمة، يطول استقصاؤهم، وكانت فيها مدارس كجامع القرويين، وجامع الزيتونة، وتخرج منها ودرس فيها أئمة في العلوم والفنون، وخلفوا آثاراً باقية بقاء اللغة العربية والعلوم الإسلامية.

وقد خاض المغرب الإسلامي العربي معارك دامية وتعاقبت فيه حكومات ودول، وأسر وعشائر، وواجه اضطراباً في الحكم وانتقال القوة والقيادة من يد إلى يد ومن بيت إلى بيت، ولكنه لم يزل محافظاً على شخصيته الإسلامية وطابعه العربي والحضاري الجميل، وعلى هيامه بالعلم والثقافة، فلم تركد ريح العلم ولم تفتر حركة التدريس والتأليف في فترة قصيرة، ولم تزل الجوامع والمدارس تبلغ رسالتها وتؤدي أمانتها، ولم يزل العلماء الربانيون والدعاة المخلصون يقولون كلمة الحق ويدعون إلى سواء السبيل، فكانت هذه التطورات والانقلابات سطحية

www.abulhasanalinadwi.org

عابرة لا تمس جوهر الشعب العربي المسلم ولا تؤثر في شخصيته وعقيدته، وكانت التحولات السياسية وتعاقب الملوك على عرش الحكم من أسر مختلفة وتبدل العواصم ومراكز الحكم لا يختلف عن انتقال الملك من يد إلى يد في أسرة واحدة وتوارث الأبناء للآباء، فالدين هو الدين، والثقافة هي الثقافة، والذوق هو الذوق.

ثم مُني أخيراً باستعمار ـ وبالأصح إحتلال ـ هو من أقسى أنواع الاحتلال وأكثرها ذكاءاً وشمولاً، وأدقها تخطيطاً وتصميماً، وأبعدها غايات ومرامي، وهو الاستعمار الفرنسي يرافقه الاستعمار الاسباني في بعض المناطق، وكان استعماراً يجمع بين الصرامة والرقة، وبين الوضوح والدقة، مسلحاً بأقوى أسلحة التطوير وأحدثها، وكان يرمي إلى إبادة شاملة، إبادة فكرية ثقافية علمية حضارية، وكان مما استعان به هذا الاستعمار في الوصول إلى غاياته البعيدة، الدعوة إلى التمييز العنصري والتفريق بين العرب والبربر، وإشعار السكان الأصليين القدامى بقوميتهم وحضارتهم وأعرافهم قبل دخول الإسلام والعرب في هذه المنطقة، ولا ينسى الجيل الذي هو في مرحلة الكهولة والشيخوخة «الظهير البربري» الذي يدعو البربر المسلمين إلى العودة إلى عهدهم قبل الإسلام وإلى أن يحيوا لغتهم ويكتبوا بها، فكانت مؤامرة استعمارية من أدق المؤامرات التي عرفت في تاريخ الاستعمار وأكبرها خطراً على

www.abulhasanalinadwi.org

ولكن المغرب الإسلامي العربي واجه كل ذلك بشجاعة واستقامة ووعي، وأثبت البربر المسلمون أن إيمانهم لا يقل عن إيمان العرب، واعتزازهم بالدين الإسلامي وحضارته وثقافته لا يختلف عن اعتزاز العرب أنفسهم بها.

وخرج المغرب بعنصرية العربي والبربري ظافراً منتصراً من هذه المعركة، محتفظاً بشخصيته الإسلامية العربية وبعقيدته وبلغته، ونخوته المغربية، وزال الاستعمار وأشباحه، وجلا الفرنسيون والإسبان، فكان دليلاً على قوة هذا الشعب وجدارته لمواجهة الأخطار والتحديات والمشكلات والأزمات، ودليلاً على تغلغل الإسلام في أحشائه وجريانه منه مجرى الروح والدم وإخلاص أولئك الرجال الذين وطئوا هذه الأرض في فجر تاريخ الإسلام ودعوا البربر إلى أن يشاركوا العرب في سعادتهم ويأخذوا من هذه الثروة الإنسانية المشتركة نصيباً غير منقوص، ولهم أن يسبقوا العرب أنفسهم في بعض الأحيان في قوة الإيمان والاعتزاز بالإسلام والتحلي بفضائله ومحاسنه والقرب عند الله، وقد أعلن رب العزة ذلك بقوله: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)[1]. فكان منهم علماء

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

www.abulhasanalinadwi.org

وزهاد، ومربون ومصلحون، ومدرسون ومؤلفون، وقد انصهروا في بوتقة الإسلام كما انصهرت بعض شعوب العجم التي حسن إسلامها في بلاد العجم.

ويخوض المغرب الإسلامي العربي الآن معركة هي أشد من كل معركة حربية جربها وخاضها في تاريخه الطويل، ومن معركة الإستعمار الأجنبي المباشر في الزمن الأخير، فكانت المعارك الأولى التي تحدثنا بها معارك سافرة مكشوفة يستعمل فيها السلاح وتنفع فيها الشجاعة والفروسية، وتقرر مصيرها التضحيات في النفوس والأموال، وينتبه ويثور لها الشعب على اختلاف مستوياته العلمية والعقلية، فكانت حرباً بين كفر وإسلام، ومعركة بين أبناء البلاد والأجانب.

ولكن معركة اليوم معركة صامتة هادئة، معركة دقيقة مقنعة، هي معركة الصراع بين فكرتين: الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية بأوسع معانيهما وآفاقهما وأبعادهما، هي معركة نستطيع أن نلخصها في قولنا: هل يبقى هذا الشعب وهذه البلاد الإسلامية ـ بكل معاني الكلمة ـ تنظر إلى الدين الإسلامي كدين يكفل سعادة البشر في جميع مجالات الحياة وكدين كامل له تخطيطه الشامل للحياة والمدنية، وصياغة للأجيال، وسياسة للتربية، وحق التدخل في كل قضية تمس دينه ومقاصده من قضايا الحياة الإنسانية، بل له أكثر من ذلك حق الوصاية والإشراف على سير الحياة، وحق القيادة والتوجيه

www.abulhasanalinadwi.org

لركب المدنية، وتنظر إلى الإسلام كدين خالد دافق بالحيوية، زاخر بالقوة يساير كل عصر بل يسبقه ويحل كل مشكلة، بل يمنع من وقوعها في الحياة التي يسيطر عليها، وفي البيئة التي له فيها الكلمة العليا.

أم هو دين عقيدة وإيمان فحسب، وقضية شخصية لا شأن لها بالمدنية وتخطيط الحياة وسياسة التربية والتعليم وصياغة الأجيال وفق عقائده وقيمه ومثله، وتشريع القوانين وحق التدخل في الحياة، فليبق المسلم مسلماً بالعقيدة والعبادة والاسم والقومية والطقوس والتقاليد عند الولادة وعند الموت، والتخطيط هو التخطيط الغربي الشامل، والمدنية هي المدنية الغربية في كل مظاهرها الخارجية والداخلية والشخصية والاجتماعية، والقيم هي القيم التي يؤمن بها الغرب ودعا إليها فلاسفته ومفكروه، والمثل هي المثل التي يقدسها الغرب ويكافح في سبيلها، والأخلاق هي الأخلاق التي نشأت واختمرت في البيئة الأوربية التي خضعت للمادية، وكان للمسيحية فيها أثر ضئيل، ثم أثر فيها العصر الصناعي التكنولوجي والتسابق الإقتصادي.

ويبدو للفاحص المطلع أن الغرب استفاد بتجاربه الطويلة المريرة في محاولة القضاء على العقيدة الإسلامية واجتثاث جذورها من قرارة قلوب المسلمين وتحويلهم عن دينهم بشكل سافر والدخول في ديانة أخرى كالنصرانية كما وقع في

www.abulhasanalinadwi.org

إسبانيا، وعدل عن فكرة التنصير الضيقة التي تثير الجماهير وتخلق مشكلات وقد تحدث موجة رد فعل عنيفة، وذلك في ضوء تجاربه ودراساته، عدل عنها إلى خطة تجريد المسلم عن شخصيته المتميزة الواسعة، وعن حضارته التي نشأت وتكونت في ظلال عقيدته وتعاليم القرآن والآداب والأخلاق الإسلامية، وروعيت فيها التسهيلات لأداء واجباته وشعائره الدينية، وكانت خاضعة لتصور إسلامي خاص للطهارة ـ وهي أكثر من النظافة وأدق ـ وموازين خاصة في مفهوم الإقتصاد والإسراف والتبذير، وقد انبثقت هذه المدنية في شكلها البدائي والأساسي ـ لا في تفاصيلها ومظاهرها التي توسع فيها المسلمون وتأنقوا في أوج حضارتهم ورفاهيتهم ـ عن تعاليم الشريعة السمحة والسنة النبوية المطهرة.

والحضارة عميقة الجذور في أعماق النفس الإنسانية وفي مشاعر الأمة وأحاسيسها، وتجريد أمة من حضارتها الخاصة التي نشأت تحت ظلال دينها وتعاليم شريعتها، وكان في صياغتها نصيب كبير للذوق الديني الخاص، وطابع هذه الأمة الخاص، مرادف لعزلها عن الحياة وتحديها في إطار العقيدة والعبادة والطقوس الدينية الضيق وفصل حاضرها عن ماضيها، وأثر هذا التحول كان عميقاً دائماً في حياة الأمم والمجتمعات البشرية، فإنها ذابت تدريجياً في بوتقة الأمم التي اقتبست منها هذه الحضارة بمعانيها الواسعة، وكان انسلاخها عن العقيدة التي

www.abulhasanalinadwi.org

بقيت متمسكة بها سهلاً.

وليس المقصود من إبراز ناحية خطر الحضارة الغربية واقتباسها على الشخصية الإسلامية وكيان الأمة المسلمة هو تحريم الإستفادة من الحضارة الغربية في مرافق الحياة واقتباس بعض ما توصل إليه العلم والصناعة والاختراع في الغرب من وسائل تسهيل وترفيه، وإغلاق الباب على مصراعيه، فإن ذلك لا يقوله عاقل فضلاً عن مطلع على روح الدين وتعاليمه، والإسلام لم يزل ولا يزال واسع الأفق منفتح القلب والنظر في الاستفادة بكل ما يصلح وينفع، ولكن مفهوم الحضارة الغربية في هذا المقال هو أوسع من اقتباس الآلات والمخترعات والتجارب المفيدة في الحياة العامة، إنها تشمل الأفكار والقيم والمفاهيم والمثل وصبغ الحياة كلها بالصبغة الغربية والتخطيط المدني الشامل واقتباس أساليب الحياة التي لا تتفق مع تعاليم الإسلام ومعاييره في الطهارة والنظافة والاعتدال والاقتصاد والوقوف عند الحدود التي رسمتها الشريعة الإسلامية، ويعسر على المسلم معها التأدب بآداب الشرع والعمل بالسنن النبوية الكثيرة، ويبتعد بها عن الحياة الإسلامية التي عاشها الرسول والصحابة والتابعون لهم بإحسان ابتعاداً كلياً، وتضفي على الأمة شخصية أجنبية لا تعرف فيها إلا بالأسماء الإسلامية أو بالأزياء التي لا تزال بعض الشعوب العربية أو الإسلامية محافظة عليها، أو عندما يرتفع صوت الأذان من منائر

www.abulhasanalinadwi.org

مساجدها، أو عندما تدخل في المساجد على قلة عدد الداخلين في بعض البلاد وكثرتهم في بعضها، فلا يربطها بالإسلام إلا خيط رقيق من عقيدة وتقاليد دينية، إذا انقطع هذا الخيط ـ لا سمح الله بذلك ـ انقطع كل شيء.

وأعتقد أنه من الميسور جداً الجمع بين التسهيلات المدنية والاستفادة بالآلات والمخترعات وما وصل إليه العلم الحديث. وبين ما تمتاز به الحضارة الإسلامية من جمال وبساطة وجدية وعناية بالطهارة والنظافة والابتعاد عن الإسراف والتبذير والإغراق في المظاهر الخارجية، إذا وفقت الحكومات الإسلامية والمجتمعات الإسلامية للتخطيط المدني المستقل، البعيد عن التقليد الأعمى والارتجال ومركب النقص، وإذا توفر عندها الذكاء والأصالة والإيمان بفضل التعاليم الإسلامية والحضارة الإسلامية التي تنبثق عنها وتقوم عليها، والاعتداد بشخصيتها، وكان هذا التخطيط أجمل وأفضل وأكثر جلباً للأنصار واستهواءً للقلوب وأبعث على الاحترام والتقدير، ويؤم هذه المدن عدد أكبر من السياح بل من قادة الفكر ورواد العلم من العدد الذي يؤمها الآن من المتنزهين، وربما يكون هذا الطراز الجميل الأصيل من المدنية باعثاً لكثير من الأقطار الغربية على تقليد بعض هذه الجوانب واقتباسها وعلى الأقل على التفكير فيها وتقديرها، كما كان الشأن مع الحضارة الإسلامية الأندلسية التي كان لها تأثير عميق في الحضارة

www.abulhasanalinadwi.org

الغربية وفلسفتها وآدابها.

ولكن مع الأسف الشديد لم يوفق لذلك قطر واحد من الأقطار الشرقية والغربية العربية والحكومات الإسلامية، ولم تكن عند أحدها جرأة كافية تحملها على مجرد هذه التجربة، وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الأقطار كلها نسخة ناقصة من المدنية الغربية وصورة شاحبة لها، لا تسترعي اهتمام الغربيين ولا تحرك فيهم مشاعر الإجلال والاحترام، وإنما يقولون إذا زاروا هذه المدن متفرجين أو مشاهدين: «بضاعتنا ردت إلينا».

وأشد من ذلك خطراً هو سياسة التربية والإعلام التي لا أداة أقوى تأثيراً وفعالية منها في صياغة الجيل الصاعد وتكوين عقليته ومشاعره وأخلاقه ومثله، فإنها هي المرضعة والحاضنة، وهي المعلمة والمربية، وهي التي تستطيع أن تنحت من أمة ذات عقائد ومباديء ومثل، أمة جديدة لا تتصل بآبائها إلا بالولادة والدم والنسل وبالأسماء واللغة أحياناً، بل أكثر من ذلك أمة ثائرة على هذه العقائد والمباديء والمثل، ترى من أول واجباتها محاربة هذه العقائد والمبادىء والمثل وإزالة هذه الأنقاض والركامات، ولو استنفذ هذا العمل السلبي معظم جهدها وطاقاتها وأوقاتها وشغل البلاد والمجتمع بحرب مسعورة هي في كثير من الأحيان أشد وأطول من الحرب مع الاستعمار والعدو الأجنبي.

www.abulhasanalinadwi.org

إنها حرب إبادة معنوية أشد خطراً على الأمة من حرب إبادة نسلية أو جنسية، لو ألهمها بعض قادة إبادة نسلية في الماضي السحيق وارتقت عقولهم وسياستهم إلى التفكير فيها واستخدام وسائلها، لتوصلوا إلى غاياتهم من غير أن يشتهروا في التاريخ بالقسوة والوحشية وإراقة الدماء، بل ربما أضفى عليهم التاريخ نعوتاً وألقاباً مشرفة، ووصفوا بنشر الثقافة واحتضان العلم وتشجيع المعارف.

إن قصة القيادات في العالم الإسلامي في هذه الفترة التي تمتد على نصف قرن، هي قصة محاربة طبيعة الشعوب الإسلامية الدينية ومحاولة التخلص منها أو التغلب عليها بكل حيلة ووسيلة، الحرب الشعواء التي أسفرت في أكثر الأقطار الإسلامية عن الإخفاق والفشل، ولكنها استهلكت جهود هؤلاء القادة وطاقات هذه الشعوب من غير أن تعود عليها بجدوى، وقد كانت جهود أقل منها تقوم على معرفة هذه الحقيقة وتقرير هذا الواقع تعود على الأمة والبلاد بحاصل كبير وتوفر الوقت والجهد على هؤلاء القادة.

وقد دلت حرب التحرير في الجزائر التي استخدمت الحماس الإسلامي والإيمان المودع في هذا الشعب المسلم في إجلاء المستعمر وتحرير البلاد، ودلت المسيرة التي قادها جلالة الملك الحسن الثاني في شوال ١٣٩٥ هـ - نوفمبر ١٩٧٦م بمقدرة وحكمة وحققت الغرض المطلوب وكان لها دوي في العالم

www.abulhasanalinadwi.org

كله، على أن هذه الأمة لا تستجيب لدعوة ولا تتحمس لها إلا إذا اقترنت هذه الدعوة بصبغة دينية ومست قلوبها ومشاعرها الإيمانية، وأنها لا تفهم إلا لغة الإيمان والحنان التي تخاطب القلوب قبل أن تخاطب العقول، تجربة تكررت عشرات من المرات في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه، فلا يسوغ المنطق السليم والعقل العملي حتى السياسة الرشيدة الواعية والقيادة الحكيمة العاقلة أن تتجاهل هذه القيادات هذه الطريقة السهلة للاستفادة من هذه الشعوب وتلتجيء إلى طرق وأساليب لا تتجاوب معها هذه الشعوب إلا مقهورة مغلوبة على أمرها، وتضيع الوقت والجهد في تحويل هذه الشعوب عن طبيعتها أو مصارعتها في غير طائل، وتكون العاقبة كما قال الشاعر:

ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب في الماء جذوة نار

ومن هذه القيادات قيادات تحب الإسلام وتجله وتفكر في تطبيق تعاليمه في مناطق نفوذها وتتمتع باحترام الشعوب التي تحكمها وبثقتها، ولكنها مصابة بالتكاسل والتسويف، وضعف الإرادة، والتسامح الزائد للعناصر المحاربة للإسلام، وفسح المجال لها للعمل والنفوذ في مجال التربية والإعلام والصحافة، فما يكون جزاء ذلك إلا أن هذه العناصر تنتهز أول فرصة لإقصاء هذه القيادات المسلمة الضعيفة، عن الحكم والسيطرة على الجهاز الإداري والحكومي، وتقع هذه الشعوب المسلمة

www.abulhasanalinadwi.org

الوادعة تحت رحمة هؤلاء اللادينيين أو العلمانيين أو الشيوعيين، وتساق إلى غايات وأوضاع لا تحبها ولا تتفق معها، كما تساق القطعان من الغنم والخراف إلى زريبتها بعصا الراعي، لا تملك من أمرها شيئاً، وما ذاك إلا بضعف هؤلاء القادة المسلمين وتكاسلهم وتضييعهم الفرص وتمكينهم لأعدائهم وأعداء الإسلام، وعلى أنفسهم وبلادهم جنوا، وهذه قصة بلاد قريبة من الأرض التي نتحدث إليها وما الأمر بسر حتى يحتاج إلى اكتشاف.

وأرجو أن يستفيد المغرب الإسلامي العربي العزيز بجميع هذه التجارب القاسية التي مرت في تاريخ الأقطار الإسلامية الشرقية والغربية، والحوادث التي حدثت في الماضي القريب، وكما يقول الحديث النبوي الشريف: «السعيد من وعظ بغيره».

ولا ينقذ هذه البلاد وهذه الأمة من هذه الأخطار الداهمة إلا القائد القوي الأمين، والبطل العصامي الذي يضحي في سبيل عقيدته ومبدئه، بلذته وراحته، وبكل ما يحبب إلى النفس من تمتع ورخاء، ومدح وإطراء، وملك زائد وسلطان راحل، ولا لذة فوق لذة الإيمان والكفاح لإنقاذ البلاد والعباد، وحماية الإسلام والمسلمين، وتأمين مستقبلهم، وإرضاء الله، والانخراط في سلك المجاهدين والمجددين الذين قيضهم الله لكل فترة حالكة ومحنة قاسية، وقد جرت سنة الله بأن يجزيهم

www.abulhasanalinadwi.org

بأعظم نصيب، من شرف وكرامة، وطيب الأحدوثة، وانتشار الذكر في الآفاق والخلود في التاريخ، والمحبة في النفوس والقلوب، يتضاءل أمامه ويتلاشى ما يطمع فيه الطامعون، من جاه ومنصب، وملك وسلطان، وشهرة زائفة، ودعايات مصطنعة.

وتحياتي العطرة وتشكراتي الخالصة لإخواننا في المغرب الحبيب الذين غمرونا بحبهم واحتفائهم وأخوتهم الإسلامية الصادقة وكرمهم العربي الأصيل، وكانت الأيام القصيرة التي قضيناها بجوارهم وفي أرضهم الجميلة الزاهية من أجل أيام العمر ومن أطيبها.

★★★ ★★★ ★★★